مجلة جامعة الملك عبدالعزيز: الآداب والعلوم الإنسانية، م (33)، ع (5)، ص ص: 365 – 393، (٢٠٢٥م)
DOI: 10.4197/Art.33-5.12

تشخيص الإمام الشوكاني للأسباب الموقعة في التعصب العلمي من خلال كتابه "أدب الطلب ومنتهى الأرب"

أروى بنت محمد بن علي العقلا

أستاذ الثقافة الإسلامية المشارك، بكلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة

a-roooora@hotmail.com

المستخلص: تناول البحث آفة التعصب في المجال العلمي، وهدف إلى استقراء منهج الإمام الشوكاني في تشخيصه للأسباب الموقعة في التعصب العلمي من خلال كتابه أدب الطلب ومنتهى الأرب، والتي قامت الباحثة بتتبعها وحصرها في ثلاثة مباحث، الأول منها تناول الأسباب البيئية والاجتماعية، والثاني منها رصد الأسباب النفسية والأخلاقية، والثالث منها في الأسباب العلمية والمنهجية. واستخدمت الباحثة المنهج الاستقرائي والاستنباطي، وتوصلت منهما إلى نتائج البحث والتي من أبرزها: الإنسان ابن بيئته وتأثره بها أمرٌ طبيعي، فإذا غلُب على أهل البلد ثقافة الجهل والتقليد التعصب وتميّز به، لاسيما التعصب المذهبي والتعصب للمشايخ والآراء؛ تشرّبه أبناء البلد وصار ديدنهم، ولا يكاد يسلم منه طلاب العلم إلا القليل منهم. ولا يقع في المراء والجدال الجاهل فقط، بل قد يقع فيه صاحب علمٍ وفهمٍ ودرايةٍ وبصيرة، إلا أن التعصب يمنعه من الإقرار بالحق والصواب، ويسوقه إلى الجدل والمراء انتصارًا للرأي والنفس لا للحق والصواب. والمنافسة بين الأقران من أسباب التعصب المانعة من الإنصاف، وتصل ببعضهم إلى درجة ردّ الصواب طالما جاء من الآخر المنافس. وأوصت الباحثة بتتبع ورصد موقف العلماء الكبار من التعصب العلمي؛ لأهمية مواجهته ومعالجته بين طلاب العلم.

الكلمات المفتاحية: تشخيص ـ الشوكاني ـ الأسباب ـ الوقوع ـ التعصب ـ العلم.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، المستحق للحمد والثناء والشكر، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه الأبرار أجمعين. ثم أما بعد:

لقد كان لعلماء الأمة الإسلامية من أئمة السلف دور بالغ الأهمية في نشر العلم، وتعزيز القيم العلمية وترسيخها في النفوس والضمائر، ومحاربة الآفات المتعلقة به وبيان مخاطرها، والإسهام العلمي والعملي في معالجتها، حيث لم يغفل علماء الأمة المسلمة عن هذه المسألة وتفصيلاتها، فتناولوا في مؤلفاتهم جل القضايا التي يمكن أن تصب في بيان ما يتعلق بطلب العلم، وما ينبغي أن يكون عليه أهل العلم وطلابه. ومما لا يخفى أن الشوكاني رحمه الله من كبار الأعلام الذين يُشار لهم بالبنان، لما له من مؤلفات علمية متميزة تتسم بالأصالة والغزارة والثراء والجمع بين الرواية والدراية، واتباع منهج السلف، والاجتهاد وفق الدليل، ومحاربة الغلو والتقليد والتعصب، وغيرها من المسائل المتنوعة، والمتأمل في مؤلفات الشوكاني يجد فيها السعة العلمية، والغزارة المعرفية، والمنهجية الشرعية، والرؤية الثاقبة، والفكرة الرصينة، والبراهين الموثقة، والاجتهاد الصائب، وقوة البيان. ويعد الشوكاني من الأئمة المجتهدين الذين كان لهم دورهم الملموس في إحياء التراث العلمي والفكري للمة المسلمة؛ فقد قدّم إسهامًا كبيرًا في معالجة العصبية التي أثقلت كاهلها ومزقت شملها إلى التحرر والاجتهاد والدوران مع الدليل حيثما دار، وعمل في هذا المجال مالم يعمله الكثير ممن سبقه من علماء الأمة أمام ذلك التقليد والتعصب الأعمى.

وعليه؛ رأت الباحثة اختيار العنوان الآتي: (تشخيص الإمام الشوكاني للأسباب الموقعة في التعصب العلمي من خلال كتابه أدب الطلب ومنتهى الأرب).

أهمية موضوع البحث وأسباب اختياره:

أولًا: البحث والكتابة في المسائل الثقافية لدى علم من أعلام السلف؛ يفتح بابًا للحصول على زبدة فكره، وخلاصة تجربته، وجوهر معالجاته للعلل والأدواء العامة التي المرتبطة بالمتعلمين وطلب العلم خصوصًا.

ثانيًا: المكانة العظيمة والجليلة التي يحتلها الشوكاني، ودوره العلمي المتميز من خلال عمله في التدريس والتعليم والدعوة والقضاء وجهوده في التأليف والتصنيف، والتي تشكل في مجموعها واحدًا من أهم روافد الثقافة الإسلامية الجديرة بالدراسة.

ثالثًا: لعل هذه الدراسة تُبرز ما تفرد به الشوكاني، فقد كان له منهجه وأسلوبه وطريقته في البحث والنظر والاستقراء والاستنباط والتقويم والمعالجة، الأمر الذي يضفي أهمية لرؤيته لبعض القضايا، ويستلزم دراسة هذه الرؤية والبحث فيها.

رابعًا: رغبة الباحثة في الإسهام بتقديم دراسة علمية في موضوع عملي معاش في الأوساط العلمية، لعلها تثري المكتبة الإسلامية بدراسة علمية حول عَلَمٍ جمع بين التحقيق العلمي الدقيق والرأي الاجتهادي السديد والإنصاف والاعتدال.

أهداف البحث:

1. تشخيص الأسباب البيئية والاجتماعية الموقعة في التعصب وفق الإمام الشوكاني
2. تشخيص الأسباب النفسية والأخلاقية الموقعة في التعصب وفق الإمام الشوكاني.
3. تشخيص الأسباب العلمية والمنهجية الموقعة في التعصب وفق الإمام الشوكاني.

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

واجه الشوكاني في عصره الكثير من القضايا الشائكة والمعقدة التي خاض فيها عراكًا علميًا واسعًا في سبيل إجلائها وتصحيح المسار والانتصار للحق فيها، وكانت أبرز المواجهات العملية في مواجهته لداء التعصب، الذي تضرر هو بنفسه منه كثيرًا، وواجه المتعصبين المتمذهبين المقلدين الغلاة بعلم وحكمة وصرامة، ومن ثمَّ وضع كتابه أدب الطلب ومنتهى الأرب الذي خصص فيه مساحةً واسعةً لتشخيص الأسباب الموقعة في التعصب. وعليه؛ فإن إشكالية هذه الدراسة تتمحور حول إثارة التساؤل الرئيس الآتي:

ما تشخيص الإمام الشوكاني للأسباب الموقعة للتعصب من خلال كتابه أدب الطلب ومنتهى الأرب؟

وتتفرع عن هذا التساؤل الرئيس التساؤلات الآتية:

1. ما تشخيص الإمام الشوكاني للأسباب البيئية والاجتماعية الموقعة في التعصب؟
2. ما تشخيص الإمام الشوكاني للأسباب النفسية والأخلاقية الموقعة في التعصب؟
3. ما تشخيص الإمام الشوكاني للأسباب العلمية والمنهجية الموقعة في التعصب؟

الدراسات السابقة:

توجد عدة دراسات تناولت منهج الإمام الشوكاني في المجال العلمي، إلا أن المهم هنا ما يتعلق منها بالتعصب، وهذه أقربها للموضوع:

1. **منهجية الشوكاني في نبذ التعصب والتقليد في فتح القدير**، فكري عبد الله الحكيمي، بحث محكم في مجلة السعيد للعلوم الإنسانية والتطبيقية، جامعة السعيد، تعز–اليمن، مج 5، عدد 1، 2022م.

تناول البحث منهج الشوكاني في فتح القدير وعلاقة مؤلفاته بظاهرة التعصب والتقليد، وأثرها على الفرد والمجتمع، وأهمية نبذ التعصب والتقليد، وطرق عملية لمعالجتهما، ومنهج الشوكاني في نبذ التعصب والتقليد في فتح القدير في الجانب التطبيقي.

2. **منهجية التفكير العلمي عند الإمام محمد بن علي الشوكاني (رحمه الله) دراسة تحليلية**، سماح سعيد الجهني، رسالة ماجستير مقدمة في قسم الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة أم القرى، عام 1443م.

جاءت هذه الدراسة في أربعة فصول، الأول عن أدوات التفكير وأنماطه عند الإمام الشوكاني، بدءً بالتفكير المنطقي ثم الناقد ثم التفكير الإبداعي ثم التفكير الغائي، وضوابط التفكير العلمي وأسسه عند الشوكاني، وخصائص التفكير العلمي ومؤثراته التي نبه عيها الشوكاني، وموقفه من بعض القضايا.

3. **موقف أئمة الإسلام من التعصب المذهبي والغلو في الدين وجهودهم في تحقيق مقصد الوسطية،** ماجد بن عبد الله الجوير، مجلة الجمعية الفقهية السعودية، جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، العدد: 54، 1442- 2021.

أبان هذا البحث موقف أئمة الإسلام من التعصب المذهبي والغلو في الدين وجهودهم في تحقيق مقصد الوسطية. تناول موقف أئمة الإسلام من التعصب المذهبي من خلال المراد به والفرق بينه وبين التمذهب، مع ذكر بعض مظاهر التعصب المذهبي، وكلام الأئمة في نبذ التعصب المذهبي، وبيانهم لأسبابه، وتحذيرهم منه، وبيانهم لآثاره وعلاجهم لها.

4. **أدب البحث العلمي عند الشوكاني،** أ.د. سعيد إسماعيل علي. مقالة منشورة في مجلة الأمة، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، قطر، المجلد: 6، العدد: 72، 1406هـ، 1986م.

تناولت المقالة بعض الآداب التي دعا إليها الشوكاني في البحث العلمي، من الموضوعية وعدم التعصب، وكراهية التقليد والدعوة إلى الاجتهاد، وأن من سلك طريق النظر في الكتب بعيون الآخرين وعقولهم؛ تعود على ان يفكر لا بعقله هو وإنما بعقل غيره، ويصبح من العسير عليه ان يستفيد من مختلف مصادر المعرفة. أما العوامل المؤدية إلى الانحياز الأعمى؛ فتتلخص في التمذهب، والافتتان بالمال والمركز، والجدال بغير الحق، بالإضافة إلى أسباب عرقية تعلق بالتعصب للآباء والأجداد.

خطة البحث

مقدمة

تمهيد: تعريف التعصب العلمي

المبحث الأول: أسباب بيئية واجتماعية

المبحث الثاني: أسباب نفسية وأخلاقية

المبحث الثالث: أسباب علمية ومنهجية

خاتمة: نتائج البحث، والتوصيات

قائمة المصادر والمراجع

منهج البحث:

1. **المنهج الاستقرائي**، وهو من المناهج الأساسية في البحوث الوصفية، حيث تعتمد الطريقة الاستقرائية على تجميع البيانات، والحقائق الجارية عن موقف معين. حيث قمت باستقراء منهج الشوكاني في تشخيص الأسباب الموقعة في التعصب.

2. **المنهج الاستنباطي:** حيث يقوم المنهج الاستنباطي على طريقة بحث ممنهجة يسير فيه الباحث من مقدمات ومبادئ إلى قضايا ونتائج، وهو المنهج الأساس المستخدم في البحوث العلمية في مجالات العلوم الإنسانية. وقمت من خلاله باستنباط تشخيص الشوكاني للأسباب الموقعة في التعصب.

التمهيد: تعريف التعصب العلمي

أولًا: تعريفه باعتبار مفرديه:

التعصب لغةً: أُخذت كلمة التعصب من العصبية، والعصبية مشتقة من العصب وهو الطي والشد اللَيّ، وعصب الشيء يعصبه عصبا طواه ولواه، واعتصب فلان بالتّاج، أي: شدَّ[1]، وكل شَيْء اسْتَدَارَ بِشَيْء فقد عَصَب بِهِ[2]. وأما عَصَبة الرجل فهم أولياؤه الذُكور من ورثته، سُمُّوا عَصَبة لأَنهم عَصَبوا بنسبه أَي استكَفُّوا بِهِ، ويعتصب بهم أي يحيطون به، ويشتد بهم[3]. ومن معانيهما أيضًا – أي التعصب والعصبية–: المحاماة والمدافعة والنصرة[4].

والعَصَبيَّة: أَن يَدْعُو الرجل إِلَى نُصْرة عَصَبته والتألُّب مَعَهم على من يناوئهم، ظالمين كَانُوا أَو مظلومين. وَقد تعصَّبوا عَلَيْهِم إِذا تجمّعوا. واعصوصب القومُ إِذا اجْتَمعُوا. فَإِذا تجمّعوا على فريق آخَرين قيل: تعصَّبوا[5].

تعريف العلم:

العلم لغةً: مصدر مشتق من الفعل الثلاثي (عَلِمَ)؛ نقيض الجَهْل. وإنه لعالم، وقد عَلِمَ يَعْلَمُ عِلْمًا، وَيُقَال: رجل علاَّمة إِذا بالغت فِي وَصفه بِالْعلمِ. وعلمت الشَّيْء بِمَعْنى عَرَفته وخَبَرته[6].

(1) ينظر: العين، الفراهيدي، (1/ 309).
(2) ينظر: تهذيب اللغة، الأزهري، (2/ 30).
(3) ينظر: تهذيب اللغة، (2/ 30)؛ لسان العرب، ابن منظور، (1/ 606).
(4) ينظر: لسان العرب، (1/ 606).
(5) ينظر: تهذيب اللغة، (2/ 30).
(6) تهذيب اللغة، (2/ 254)؛ العين، (2/ 152).

والعلم: اليقين والمعرفة وهي: إدراك الشيء على ما هو عليه[1].

والعلم اصطلاحًا: هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، وقال الحكماء: هو حصول صورة الشيء في العقل، والأول أخص من الثاني، وقيل: العلم هو إدراك الشيء على ما هو به، وقيل: زوال الخفاء من المعلوم، والجهل نقيضه، وقيل: هو مستغنٍ عن التعريف، وقيل: العلم: صفة راسخة تدرك بها الكليات والجزئيات[2].

ثانيًا: تعريفه باعتباره مركبًا إضافيًا، أي التعصب العلمي؛ فهو التعصّب لأفكار وآراء معينة، وعدم محاولة حتى سماع الطرف الآخر عن آرائه وأفكاره، وهو من أكثر أشكال التعصّب خطورة وينتج عن أنواع التعصّب الأخرى. وبعبارة أخرى هو: الغلو والتمادي في التعلق الشخصي بمبدأ أو فكرة أو عقيدة، بحيث لا تترك مجالًا للتسامح، وقد يتعدى ذلك إلى العنف والتخريب[3].

وتم تعريفه بأنه: "عدم قبول الحق عند ظهور الدليل بناءً على ميل إلى جانب"[4]، كما تم تعريفه بأنه "الميلُ مع الهوى؛ لأجل نصرةِ المذهب، ومعاملة الإمام الآخر، أو مقلِّديه بما يحطّ عنهم"[5].

وعرّف الشوكاني التعصب العلمي: "بأن تجعل ما يصدر عن إمام المذهب من الرأي ويروي لك من الاجتهاد حجة عليك وعلى سائر العباد"[6]. ومن ثمّ قام بتشخيص داء هذا التعصب واستجلاء الأسباب الموقعة فيه، والتي يمكن الوقوف على أبرزها من خلال المباحث الآتية ومطالبها.

المبحث الأول: أسباب بيئية واجتماعية

المطلب الأول: النشوء في بلدٍ تميَّز أهله بالتعصُّب المذهبي

ولعل في هذا السبب يكمن التأسيس الأولي للتعصب إجمالًا ومنه التعصب العلمي؛ فالإنسان ابن بيئته وتأثره بها أمرٌ طبيعي، فإذا غلُب على أهل البلد ثقافة الجهل والتقليد التعصب وتميّز به، لاسيما التعصب المذهبي والتعصب للمشايخ والآراء، تشرّبه أبناء البلد وصار ديدنهم، ولا يكاد يسلم منه طلاب العلم إلا القليل منهم.

وفي تشخيص هذه البيئة المتعصبة وأثرها السلبي على طالب العلم، قال الشوكاني: "وَهُوَ أَكْثَرهَا وقوعا وأشدها بلَاءً؛ أَن ينشأ طَالب الْعلم فِي بلد من الْبلدَانِ الَّتِي قد تمذهب أَهلهَا بِمذهب معِين وَاقْتَدوا بعالم

(1) التعريفات، الجرجاني، (ص283).
(2) ينظر: المصدر السابق، (ص155).
(3) ينظر: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، أحمد زكي بدوي، (ص154).
(4) شرح التلويح على التوضيح، التفتازاني، (2/ 91).
(5) القول السديد في بعض مسائل الاجتهاد والتقليد، ابن الرومي المكي، (ص47).
(6) أدب الطلب ومنتهى الأرب، (ص32).

مَخْصُوص، وَهَذَا الدَّاء قد طبق فِي بِلَاد الْإِسْلَام وَعم أَهلهَا، وَلم يخرج عَنهُ إِلَّا أَفْرَاد قد يُوجد الْوَاحِد مِنْهُم فِي الْمَدِينَة الْكَبِيرَة وَقد لَا يُوجد، لِأَن هَؤُلَاءِ الَّذين ألفوا هَذِه الْمذَاهب قد صَارُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا هِيَ الشَّرِيعَة وَأَن مَا خرج عَنْهَا خَارج عَن الدّين مباين لسبيل الْمُؤمنِينَ، (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ [المومنون:58]، فأهل هذا المذهب يعتقدون أن الْحق بِأَيْدِيهم وَأَن غَيرهم على الْخَطَأ والضلال والبدعة، وَأهل المذهب الآخر يقابلونهم بِمثل ذَلِك، وَالسَّبَب أَنهم نشأوا فوجدوا آبَاءَهُم وَسَائِر قراباتهم على ذَلِك وَرَثَة الْخلف عَن السّلف وَالْآخر عَن الأول، وانضم إِلَى ذَلِك قصورهم عَن إِدْرَاك الْحَقَائِق بِسَبَب التَّغْيِير الَّذِي ورد عَلَيْهِم مِمَّن وجدوه قبلهم"[1].

بل إن هذه البيئة المتعصبة تصنع الخوف لدى من يدرك الحق بعيدًا عن التعصب من مخالفة السائد فيها، فيكتم الحق الذي يعلمه إيثارًا للسلامة؛ فيغلب الجمود العلمي، ويغيب العدل والإنصاف، وهذا حاصلٌ بكثرةٍ في البيئات المتعصبة التي يضعف فيها الحق أمام سطوة التعصب.

ويبين الشوكاني كيف تُخضع البيئة المتعصبة من يعرف الحق ووقوعه تحت تأثيرها، فيقول: "إِذا وجد فيهم من يعرف الْحق فَهُوَ لَا يَسْتَطِيع أَن ينْطق بذلك مَعَ أخص خواصه وَأقرب قرَابَته فضلا عَن غَيره، لما يخافه على نَفسه أَو على مَاله أَو على جاهه بِحَسب اخْتِلَاف الْمَقَاصِد وتباين العزائم الدِّينِيَّة، فَيحصل من قصورهم مَعَ تغير فطرهم بِمن أرشدهم إِلَى الْبَقَاء على مَا هم عَلَيْهِ وَأَنه الْحق وخلافه الْبَاطِل"[2].

وهذا الخوف يعزز التعصب في البيئة، ويعيق الإفادة من الغير، ويُرسخ الظن بامتلاك الحق المطلق والصواب المحض، وأن ما سواه باطلٌ مرفوض، لذا؛ فإن "سكوت من لَهُ فطنة ولدينه عرفان وَعِنْده إنصاف عَن تعليمهم معالم الْإِنْصَاف وهدايتهم إِلَى طرق الْحق، مَا يُوجب جمودهم على مَا هم عَلَيْهِ واعتقادهم أَن الْحق مَقْصُور عَلَيْهِ منحصر فِيهِ وَأَن غَيره لَيْسَ من الدّين وَلَا هُوَ من الْحق، فَإِذا سمع عَالما من الْعلمَاء يُفْتى بِخِلَافِهِ أَو يعْمل على مَا لَا يُوَافقهُ، اعْتقد أَنه من أهل الضلال وَمن الدعاة إِلَى الْبِدْعَة، وَهَذَا إِذا عجز عَن إِنْزَال الضَّرَر بِهِ بِيَدِهِ أَو لِسَانه، فَإِن تمكن من ذَلِك فعله مُعْتَقدًا أَنه من أعظم مَا يتَقَرَّب بِهِ إِلَى الله ويدّخره فِي صَحَائِف حَسَنَاته ويتأجر الله"[3]. وكأن الشوكاني يتحدث عن عصرنا هذا؛ فالمرض ذاته سائدٌ حتى اليوم.

والصواب أن طالب العلم لا يضعف أمام الحق الذي يعلمه مهما كان التعصب في بيئته طاغيًا، إنما يسعى إلى تبصير الناس بالصواب الذي يعلمه والحق الذي يدركه، دون خوفٍ أو مواربةٍ أو يأسٍ يغلب

---

(1) الشوكاني، محمد بن علي، (1419هـ- 1998م)، أدب الطلب ومنتهى الأدب، تحقيق: عبد الله يحيى السريحي، ط1، دار ابن حزم، (ص73).

(2) المرجع السابق.

(3) نفسه.

عليه، لكن بوعي وبصيرة وأساليب حسنةٍ في التأثير والإقناع، وبذل الجهد بحكمةٍ وبصيرةٍ وتدرج في انتزاع ظنونهم الخاطئة وتعليمهم وفق الدليل الصحيح الذي لن ترده النفوس المؤمنة، وهذا ما وجه به الشوكاني بقوله: "وَهَا أَنا أرشدك على مَا تستعين بِهِ على الْقيام بِحجَّة الله وَالْبَيَان لما أنزلهُ، وإرشاد النَّاس إِلَيْهِ على وَجه لَا تتعاظمه وتقدر فِيهِ مَا كنت تقدره من تِلْكَ الْأُمُور الَّتِي جبنت عِنْد تصورها وَفرقت بِمُجَرَّد تخيلها، وَهُوَ أَنَّك لَا تَأتي النَّاس بَغْتَة وتصك وجهوهم مفاجأة ومجاهرة، وتنعى عَلَيْهِم مَا هم فِيهِ نعيا صراحا، وتطلب مِنْهُم مُفَارقَة مَا ألفوه طلبًا مضيفًا وتقتضيه اقْتِضَاء حثيثًا، بل اسلك مَعَهم مسالك المتبصرين فِي جذب الْقُلُوب إِلَى مَا يَطْلُبهُ الله من عباده، ورغبهم فِي ثَوَاب المنقادين إِلَى الشَّرْع المؤثرين للدليل على الرَّأْي وللحق على الْبَاطِل"[1].

المطلب الثاني: حُبُّ الشرف والمال.

لا شكّ في أن حب المال والجاه من العوامل التي تؤدي إلى التعصب، فالحرص الشديد على المكاسب المالية أو المكانة الاجتماعية غالبًا ما يؤدي إلى التنازل عن القيم والمبادئ في سبيل الحصول عليهما، وفي هذا ضياع الدين والإيمان والعلم. وإن فتن الدنيا كثيرة إلا أن فتنة المال أعظم فتنة فيها، فإذا وجدت فلا سلامة منها. وهذا ما انتبه له الشوكاني في بيان تأثير حبّ الشرف والمال وهو بصدد تشخيص التعصب ورصد أحوال المتعصبين ودوافعهم، حيث قال: "وَمن جملة الأسباب التي يتسبب عَنْهَا ترك الإنصاف ويصدر عنها الْبعد عن الحق وكتم الحجَّة وعدم مَا أوجبه الله من الْبَيَان؛ حب الشّرف والمال اللَّذين هما أعدى على الْإِنْسَان من ذئبين ضاريين كَمَا وصف ذَلِك رَسُول الله (ﷺ)[2]، فَإِن هَذَا هُوَ السَّبب الَّذِي حرّف بِهِ أهل الْكتاب كتب الله الْمنزلَة على رسله، وكتموا مَا جَاءَهُم فيها من الْبَيِّنَات والهدى كَمَا وَقع من أَحْبَار الْيَهُود، وَقد أخبرنَا الله بذلك فِي كِتَابه الْعَزِيز، وَأَخْبرنَا به رسول الله (ﷺ) فِي الثَّابِت عَنهُ فِي الصَّحِيح. وَبِهَذَا السَّبَب بقي من بقي على الْكفْر من الْعَرَب وَغَيرهم بعد قيام الْحجَّة عَلَيْهِم وَظُهُور الْحق لَهُم وَبِه نَافق من نَافق"[3].

ولا يتوقف الأمر في هذه المسألة الدنيوية عند ضعاف الورع وفاسدي الأخلاق ومتصنعي العلم وأهل البدعة فحسب، بل قد يقع فيه بعض من هم على معتقدٍ صحيح ومنهجٍ سليم، إذ يغلب عليهم الضعف البشري ويستحكم بهم الهوى؛ فيحصل منهم ما لا يليق بحقهم، مجاراةً للبشر وموافقةً لهم على ما هم عليه من الرأي وإن كانوا على باطلٍ جلي، وفي وصفه لهؤلاء قال الشوكاني: "فكثيرا مَا نرى الرجل يعْتَقد فِي نفسه اعتقادا يُوَافق الحق ويطابق الصَّوَاب، فَإِذا تكلم عِنْد من يُخَالِفهُ فِي ذَلِك ويميل إِلَى شيء من

(1) المرجع السابق، (ص96).

(2) في قوله (ﷺ): «ما ذئبانِ ضاريانِ في حظيرةٍ يأكلان ويُفسِدان؛ بأضرَّ فيها من حُبِّ الشَّرفِ وحبِّ المالِ في دِين المرءِ المسلمِ». أخرج أبو نعيم في (حلية الأولياء) (٨٩/٧)، والألباني، في صحيح الترغيب (٣٢٥٢) حسن صحيح.

(3) أدب الطلب، (ص86).

الْبِدْعَة فضلا عَن أَن يكون من أهل الرِّئَاسَة وَمِمَّنْ بِيَدِهِ من الدُّنْيَا فضلا عَن أَن يكون من الْمُلُوك؛ وَافقه وساعده وسانده وعاضده، وَأَقل الْأَحْوَال أَن يكتم مَا يَعْتَقِدهُ من الْحق، ويغمط مَا قد تبين لَهُ من الصَّوَاب عِنْد من لَا يجوز مِنْهُ ضَرَرا وَلَا يقدر مِنْهُ نفعا فَكيف مِمَّن عداهُ"[1].

ويختم الشوكاني هذه المسألة ببيان أن هذا الفعل مما لا يليق بحملة العلم والقائمين بالحجة والثابتين على الحق الذين لا ينبغي أن يسقطهم متاع الدنيا فينحرفوا عن المسار الصحيح، حيث قال: "وَهَكَذَا جرت عَادَة الله فِي عباده فَإِنَّهُ لَا ينَال من أَرَادَ الدُّنْيَا بِالدّينِ إِلَّا وبالا وخسرانا عَاجلا أم آجلا خُصُوصا من كَانَ من الحاملين لحجة الله المأمورين بإبلاغها إِلَى الْعباد فَإِن خَيره فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة مربوط بوقوفه على حُدُود الشَّرِيعَة فَإِن زاغ عَنْهَا زاغ عَنهُ، وَقد صرح الله سُبْحَانَهُ بِمَا يُفِيد هَذَا فِي غير مَوضِع من كِتَابه الْعَزِيز، فَأَنت أَيهَا الْحَامِل للْعلم لَا تزَال بِخَير مَا دمت قَائِما بِالْحجَّةِ مرشدا إِلَيْهَا ناشرا لَهَا غير مستبدل بهَا عرضًا من أَعْرَاض الدُّنْيَا أَو مرضاةً من أَهلهَا"[2].

المطلب الثالث: حب القرابة والتعصب للأجداد

ومن الأسباب الموقعة في التعصب إجمالًا؛ حب الْقَرَابَة والتعصب للأجداد، إذ يبدأ تعصبًا اجتماعيًا عامًا، يفقد الميزان الشرعي والضابط الأخلاقي لحب القرابة الذي في أصله حبٌ فطري، إلا أن خلطًا خطيرًا يجري بين الحب الطبيعي للقرابة والآباء والأجداد والتعصب للرأي الذي هو محط الأخذ والرد والخطأ والصواب، وقد جاء ذم هذا التعصب والتقليد والتحذير منه في الكتاب والسنة، وفيه قال النبي: «مَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ[3]، يَدْعُو إِلَى عَصَبِيَّةٍ، أَوْ يَغْضَبُ لِعَصَبِيَّةٍ، فَقِتْلَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ»[4].

ولعل هذا السبب بمجمله يرجع إلى النشأة الاجتماعية المتعصبة والمنغلقة على ذاتها، والتي ينتقل أثرها إلى الوسط العلمي، وهذا ما بينه الشوكاني بقوله: "وَمن الْأَسْبَاب الْمُقْتَضِيَة للتعصب؛ أَن يكون بعض سلف المشتغل بِالْعلمِ قد قَالَ بقول وَمَال إِلَى رأي فَيَأْتِي هَذَا الَّذِي جَاءَ بعده فيحمله حب الْقَرَابَة على الذّهاب إِلَى ذَلِك الْمَذْهَب وَالْقَوْل بذلك القَوْل وَإِن كَانَ يعلم أَنه خطأ، وَأَقل الْأَحْوَال إِذا لم يذهب إِلَيْهِ أَن يَقُول فِيهِ: إِنَّه صَحِيح ويتطلب لَهُ الْحجَج ويبحث عَن مَا يقويه وَإِن كَانَ بمَكَان من الضعْف وَمحل من السُّقُوط وَلَيْسَ لَهُ فِي هَذَا حَظّ وَلَا مَعَه فَائِدَة"[5].

---

(1) أدب الطلب، (ص87).

(2) المرجع السابق، (ص89).

(3) هي بضم العين وكسرها لغتان مشهورتان: هي الأمر الأعمى لا يستبين وجهه. ينظر: تهذيب اللغة، (3/ 157).

(4) سنن النسائي، كتاب تحريم الدم، باب التغليظ فيمن قاتل تحت راية عميّة، (4115)، (2/ 315). صححه الألباني، صحيح وضعيف الجامع الصغير، (11388)، (23/ 388).

(5) أدب الطلب، (ص90).

ويصل أمر التعصب العلمي للقرابة والأجداد، إلى ترجيح مذاهبهم وأقوالهم وإن جانبت الصواب، فخرًا واعتزازًا بهم ومبالغةً بفضلهم وشرفهم في العلم، إذ ينساق المتعصب هنا لأجداده تلقائيًا بفعل العاطفة البشرية من التعصب الأسري إلى التعصب العلمي، إن لم يحتكم لضوابط الشرع، وصحيح الأدلة، وصائب القول. وقد شخّص الشوكاني أحوال هؤلاء ونفسياتهم بقوله: "وَلِهَذَا ترى كثيرًا مِنْهُم يستكثر من قَالَ جدنا قَالَ والدنا وَاخْتَارَ كَذَا وصنع كَذَا وفعل كَذَا، وَهَذَا لَا شكّ أَن الطباع البشرية تميل إِلَيْهِ وَلَا سِيمَا طبائع الْعَرَب، فَإِن الْفَخر بالأنساب والتحدث بِمَا كَانَ للسلف من الأحساب يَجدونَ فِيهِ من اللَّذَّة مَا لَا يجدونه فِي تعداد مَنَاقِب أنفسهم، ويزداد هَذَا بِزِيَادَة شرف النَّفس وكرم العنصر ونبالة الْآبَاء، وَلَكِن لَيْسَ من الْمَحْمُود أَن يبلغ بِصَاحِبِهِ إِلَى التعصب فِي الدّين وتأثير الْبَاطِل على الْحق"[1].

فمثل هذا التعصب له نتائج عكسية غير ما يرمي المتعصبون إلى تحقيقه؛ إذ إن نسبة القول الضعيف أو الخاطئ إلى أصحاب القرابة السابقين، قد يؤثر على مكانتهم العلمية ووجاهتهم الدينية والدنيوية عند الناس، وهذا ما لفت الأنظار إليه الشوكاني بقوله: "بل التعصب مَعَ كَونه مُفْسِدًا للحظ الأخروي يفْسد عَلَيْهِ أَيْضا الْحَظ الدنيوي، فَإِنَّهُ إِذا تعصب لسلفه بِالْبَاطِلِ فَلَا بُد أَن يعرف كل من لَهُ فهم أَنه متعصب وَفِي ذَلِك عَلَيْهِ من هدم الرّفْعَة الَّتِي يريدها والمزية الَّتِي يطْلبهَا مَا هُوَ أعظم عَلَيْهِ وَأَشد من الْفَائِدَة الَّتِي يطْلبهَا بِكَوْن لَهُ قريب عَالم فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعهُ صَلَاح غَيره مَعَ فَسَاد نَفسه، وَإِذا لم يعْتَقد فِيهِ السَّامع التعصب اعْتقد بِلَاده الفهمُ ونقصان الْإِدْرَاك وَضعف التَّحْصِيل، لِأَن الْميل إِلَى الْأَقْوَال الْبَاطِلَة لَيْسَ من شَأْن أهل التَّحْقِيق الَّذين لَهُم كَمَال إِدْرَاك وَقُوَّة فهم وَفضل دراية وَصِحَّة رِوَايَة، بل ذَلِك دأب من لَيست لَهُ بَصِيرَة نَافِذَة وَلَا معفرة نافعة"[2].

ومن هذا النوع من التعصب؛ يكون التعصب للمذهب السائد في البلد، أو التوجه العام فيها، ونصرة مذهبٍ على آخر، والسعي إلى إقصاء المذاهب المختلفة، بل قد يتوهم المتعصب أن المذهب أو الرأي السائد في بلده هو الدين الحق وما سواه ضلال مبين، وقد أنجر بعص الأمراء لمثل هذا التعصب، واستغلوا السلطة في تمكين مذهب على آخر، فأثر الدولة هنا يكون واضحًا في ترسيخ التعصب والانتصار لمذهب ما، ومن أشهر الحوادث التاريخية في ذلك، على سبيل المثال في عهد العباسيين بدأ المأمون بتبني الاعتزال، وانتصر للمعتزلة في دولته، وتعصب على أهل السنة تعصبًا مفرطًا، و فرض عليهم القول بخلق القرآن بالقوة، وهدد من يُخالفه بالقتل والسجن و الحرمان وبالرغم من عقيدتهم المبنية على العقل استغل المعتزلة هذه السلطة في تكفير خصومهم ونكلوا بهم في محنة خلق القرآن[3].

---

(1) المصدر السابق.

(2) نفسه.

(3) ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، (14/ 217).

وحول ذلك يبين الشوكاني أثر الدولة في التعصب المذهبي بقوله: "فالناشئ فِي دولة ينشأ على مَا يتظهّر بِهِ أَهلهَا ويجد عَلَيْهِ سلفه؛ فيظنه الدّين الْحق وَالْمذهب الْعدْل، ثمَّ لَا يجد من يرشده إِلَى خِلَافه إِن كَانَ قد تظهر أَهله بِشَيْء من الْبدع وَعَلمُوا على خلاف الْحق؛ لِأَن النَّاس إِمَّا عَامَّة وهم يَعْتَقِدُونَ فِي تِلْكَ الْبدع الَّتِي نشأوا عَلَيْهَا ووجدوها بَين ظهرانيهم إِنَّمَا هِيَ الدّين الْحق وَالسّنة القويمة والنحلة الصَّحِيحَة، وَإِمَّا خَاصَّة، وَمِنْهُم من يتْرك التَّكَلُّم بِالْحَقِّ والإرشاد إِلَيْهِ مَخَافَة الضَّرَر"[1]. وما زلنا اليوم نرى بعض المتعصبين ينحاز للرأي السائد في بلده تعصبًا وإن كان معلوم الخطأ، مقابل رفضه للرأي الصائب السائد في غير بلده.

المبحث الثاني: أسباب نفسية وأخلاقية

المطلب الأول: الْجِدَال والمراء وَحب الِانْتِصَار والظهور.

والجدال: هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة وأصله من: جَدَلْتُ الحبل، أي: أحكمت فتله. ومنه: الجِدَال، فكأنّ المتجادلين يفتل كلّ واحد الآخر عن رأيه[2]. وجادلتُ الرجل فَجَدَلْتُهُ جَدْلًا إذا غلبتُه، ورجل جِدلٌ إذا كان ألوى في الخصام[3]. وقال الكفويّ: "الجدال هو عبارة عن دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجّة أو شبهة وهو لا يكون إلّا بمنازعة غيره"[4]، وقال ابن الأثير في المراء: "الجدال والتماري والمماراة المجادلة على مذهب الشك والريبة ويقال للمناظرة مماراةً لأن كل واحدٍ منهما يستخرج ما عند صاحبه ويمتريه كما يمتري الحالب اللبن من الضرع"[5].

والجدال قد يكون محمودا إذا تعلّق بإظهار الحقّ، وقد أُمِرَ بذلك النّبيّ (ﷺ) في قوله سبحانه: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:125]، وقد يكون مذمومًا إذا شغل عن ظهور الحقّ ووضوح الصّواب، وقد عدّه الذّهبيّ من الكبائر بقوله: "إن كان الجدال للوقوف على الحقّ وتقريره كان محمودا، وإن كان الجدال في مدافعة الحقّ، أو كان بغير علم كان مذموما، وعلى هذا التّفصيل تنزّل النّصوص الواردة في إباحته وذمّه"[6].

والجدال المذموم هو كل جدال أيدَّ الباطل، أو أوصل إليه، أو شغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب، أو كان بغير علم وبصيرة، فهو ناشئ عن جهل، وسوء خلق، وتعصب للرأي، والغرض منه: الظهور

---

(1) أدب الطلب، (ص91-93).

(2) ينظر: المفردات، للراغب الأصفهاني، (ص89).

(3) تهذيب اللغة، (10/ 344)

(4) الكليات، (ص353).

(5) النهاية في غريب الحديث والأثر، (4/ 322).

(6) ينظر: الكبائر، (ص222)

والفخر، فصاحبه يتعصب لرأيه، سواء كان على صواب أم خطأ، وإن رد عليه بعض كلامه يغضب، ولا تهدأ نفسه حتى يتنازل من يناظره عن رأيه. والجدال المذموم آفة عظيمة، وداء عضال، وقع فيه كثير من المسلمين، وهو يذكي العداوة، ويورث الشقاوة، ويقود إلى الكذب، فإذا تجنبه المرء سلم من اللجاج، وحافظ على صفاء قلبه. والنبي (ﷺ) يشير لهذا المرض أيضًا، ويحذر منه ويبين خطورته بقوله: «من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه، أدخله الله النار»[1]. وقال (ﷺ): «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» ثم تلا تلك الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: 58][2].

وفي تشخيصه للجدال والمراء كسببٍ موقعٍ في التعصب، قال الشوكاني: "فَإِن الرجل قد يكون لَهُ بَصِيرَة وَحسن إِدْرَاك وَمَعْرِفَة بِالْحَقِّ ورغوب إِلَيْهِ فيخطئ فِي المناظرة، ويحمله الْهوى ومحبة الغلب وَطلب الظُّهُور على التصميم على مقاله وَتَصْحِيح خطأه وتقويم معوجه بالجدال والمراء. وَهَذِه الذريعة الإبليسية والدسيسة الشيطانية قد وَقع بهَا من وَقع فِي مهاوي من التعصبات ومزالق من التعسفات عَظِيمَة الْخطر مخوفة الْعَاقِبَة[3]. وهذا يعني أن المراء والجدال لا يقع فيهما الجاهل فقط، بل قد يقع فيه صاحب علمٍ وفهمٍ ودرايةٍ وبصيرة، إلا أن التعصب يمنعه من الإقرار بالحق والصواب، ويسوقه إلى الجدل والمراء انتصارًا للرأي والنفس لا للحق والصواب، وقد يصل الأمر ببعض هؤلاء إلى الوقوع في آفةٍ أشد سوءًا من الجدال والمراء وفق الشوكاني الذي يقول: "وَقد شاهدنا من هَذَا الْجِنْس مَا يقْضى مِنْهُ الْعجب فَإِن بعض من يسْلك هَذَا المسلك قد يُجَاوز ذَلِك إِلَى الْحلف بِالْإِيمَان على حَقِيقَة مَا قَالَه وصواب مَا ذهب إِلَيْهِ، وَكَثِيرًا مِنْهُم يعْتَرف بعد أَن تذْهب عَنهُ سُورَة الْغَضَب وتزول عَنهُ نزوة الشَّيْطَان بِأَنَّهُ فعل ذَلِك تعمدًا مَعَ علمه بِأَن الَّذِي قَالَه غير صَوَاب، وَقد وَقع مَعَ جمَاعَة من السّلف من هَذَا الْجِنْس مَا لا يَأْتِي عَلَيْهِ الْحصْر، وَصَارَ ذَلِك مَذَاهِب تروى وأقوال تحكى كَمَا يعرف ذَلِك من يعرف"[4].

المطلب الثاني: المنافسة بَين الأقران وعدم الإنصاف.

الأقران: هم: من تماثلوا أو تقاربوا في السند، يعني: الأخذ عن الشيوخ، وكذا في السن[5].

وقد حذَّر العلماء من هذه الآفة، وبيَّنوا خطورتها، خاصَّةً إذا كانت بين أهل العلم: قال ابن عباس (ﷺ): استمعوا علم العلماء، ولا تُصدِّقوا بعضهم على بعض، فوالذي نفسي بيده لهم أشد تغايُرًا من التيوس في

(1) سنن الترمذي (2654)، (5/ 32). حسنه الألباني، صحيح وضعيف الجامع الصغير، (11329)، (23/ 329).
(2) سنن ابن ماجه، (48)، (1/ 33)، وأخرجه الترمذي (٣٢٥٣)، وأحمد (٢٢١٦٤)، والألباني، صحيح الترغيب (١٤١) وقال حسن.
(3) أدب الطلب، (ص89).
(4) المرجع السابق، (89-90).
(5) ينظر: فتح المغيث بشرح الفية الحديث للعراقي، السخاوي، (3/ 174).

زروبها، وقال أيضًا: خذوا العلم حيث وجدتُم، ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم في بعض، فإنهم يتغايرون تغاير التيوس في الزريبة[1]، وقال الذهبي: "كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به، لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد"[2].

والأسباب الداعية إلى كلام الأقران بعضهم في بعض كثيرة، منها الحسد والغيرة والمنافسة، والعداوة والبغضاء والغضب وسوء الرأي والجهل بقدر العلماء[3]، وقد ذكر الشوكاني أن المنافسة بين الأقران من أسباب التعصب المانعة من الإنصاف، وتصل ببعضهم وإن كانوا من أهل العلم إلى درجة رد الصواب طالما جاء من الآخر المنافس، حيث قال: "وَمن الْأَسْبَاب الْمَانِعَة من الْإِنْصَاف مَا يَقع من المنافسة بَين المتقاربين فِي الْفَضَائِل أَو فِي الرِّئَاسَة الدِّينِيَّة أَو الدُّنْيَوِيَّة، فَإِنَّهُ إِذا نفخ الشَّيْطَان فِي أنفهما وترقت المنافسة بلغت إِلَى حدٍ يحمل كل وَاحِد مِنْهُمَا على أَن يرد مَا جَاءَ بِهِ الآخر إِذا تمكن من ذَلِك وَإِن كَانَ صَحِيحا جَارِيا على مَنْهَج الصَّوَاب. وَقد رَأينَا وَسَمعنَا من هَذَا الْقَبِيل عجائب صنع فِيهَا جمَاعَة من أهل الْعلم صَنِيع أهل الطاغوت وردوا مَا جَاءَ بِهِ بَعضهم من الْحق وقابلوه بالجدال الْبَاطِل والمراء الْقَاتِل"[4].

وأشار الشوكاني إلى بعض النماذج التي عاصرها وعايشها وجرت معه في بعض دروسه من بعض طلاب العلم، قائلًا: "وَإِنِّي لأذكر أَيَّام اشْتِغَال الطّلبَة بالدرس عَليّ فِي كثير من الْعُلُوم وَكنت أُجِيب عَن مسَائِل ترد عَليّ يحررها الطّلبَة، ويحررها غَيرهم من أهل الْعلم من أمكنة قريبَة وبعيدة، فَكَانَ يتعصب على تِلْكَ الْأَجْوِبَة جمَاعَة من المشاركين لي فِي تدريس الطّلبَة فِي عُلُوم الِاجْتِهَاد وَغَيرهَا، وَقد يسلكون مسلكًا غير هَذَا فَيَقَع مِنْهُم الإيهام على الْعَوام بمخالفة ذَلِك الْكَلَام لما يَقُوله من يَعْتَقِدُونَ قَوْله من الْأَمْوَات، فينشأ عَن ذَلِك فتن عَظِيمَة وحوادث جسيمة. وَكَانَ بعض نبلائهم يكْتب على بعض مَا أكتبه ثمَّ يهديه إِلَى السَّائِل، وَإِن كَانَ فِي بلد بعيد من دون أَن يَقْصِدهُ بسؤال وَلَا طلب مِنْهُ تعقب مَا أجبْت بِهِ من الْمقَال، وَقد أَقف على شَيْء من ذَلِك فأجده فِي غَايَة من الاعتساف فأتعقبه تعقبا فِيهِ كشف عواره وإيضاح بواره"[5].

ويؤكد الشوكاني على أن هذا الامتناع من قبول الحق إذا جاء من الأقران سبب نفسي بحت ينبغي الانتباه له وعدم الانسياق خلف النوازع النفسية، إذ هذا اختبارٌ صعبٌ لمدى تورط صاحب العلم بالتعصب من عدمه، حيث قال: "فَيَنْبَغِي للمنصف أَن لَا يغْفل عَن هَذَا السَّبَب، فَإِن النَّفس قد تنقبض عَن كَلَام من كَانَ منافسا فِي رُتْبَة مُعَارضا فِي فَضِيلَة وَإِن كَانَ حَقًّا وَقد يحصل مَعَ النَّاظر فِيهِ زِيَادَة على مُجَرّد

(1) ينظر: جامع بيان العلم وفضله، (2/ 1091).
(2) سير أعلام النبلاء، (المقدمة/ 59).
(3) ينظر: كلام الأقران بعضهم في بعض أسبابه ونتائجه، أيمن مهدي، (ص22)
(4) أدب الطلب، (ص140).
(5) أدب الطلب، (ص141).

الانقباض فيتكلم بِلِسَانِهِ أَو يحرر بقلمه مَا فِيهِ مُعَارضَة للحق وَدفع للصَّوَاب فَيكون مؤثرا لحمية الْجَاهِلِيَّة وعصبية الطاغوت على الشَّرِيعَة المطهرة وَكفى بِهَذَا فَإِنَّهُ من الخذلان الْبَين"[1].

وبصدد تشخيصه لحال هؤلاء وما يصلون إليه في تعصبهم وعدم إنصافهم لمخالفيهم، بل شدّة عداوتهم لهم، قال الشوكاني: "وَهَذَا مَعْلُوم لكل أحد وَقد شاهدنا مِنْهُ مَالا يَأْتِي عَلَيْهِ حصر وَلَا تحيط بِهِ عبارَة، بل قد بلغ هَذَا المتعصب فِي معاداة من يُخَالِفهُ إِلَى حد يُجَاوز بِهِ عدواته للْيَهُود وَالنَّصَارَى وَلَو علم المخدوع الْمَغْرُور بِأَن سَعْيه ضلال وَعَمله، وبال وَأَنه من الأخسرين أعمالًا، ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104]، لأقصر عَن غوايته وأرعوى عَن بعض جَهله، لكنه جهل قدر نَفسه وخسران سَعْيه، وتحامي غَيره من أهل الْمعرفَة والفهم إرشاده إِلَى الْحق وتنبيهه على فَسَاد مَا هُوَ فِيهِ مَخَافَة على نَفسه مِنْهُ وَمِمَّنْ يشابهه فِي ذَلِك، فتعاظم الْأَمر وَعم الْبلَاء وتفاقم الْأَمر وَعم الضَّرَر"[2].

وكم من طالب علمٍ حمله التعصُّب على عدم الإنصاف، وفي المقابل تراه إذا أبغض أحدًا. لهوىً في نفسه، أو تقليدًا لغيره . جرّده من جميع الفضائل، ولم ينظر إلا إلى سيئاته وزلّاته يضخمها، وينسى أو يتناسى محاسنه الأخرى مهما كانت بيّنة، بل قد تتحوَّل المحاسن المتَّفق على حسنها إلى سيئات؛ لغلبة الهوى والبغض. وقال ابن القيم في ذلك: "والله تعالى يُحِبُّ الإنصاف، بل هو أفضل حِلية تحلّى بها الرجل، خصوصًا من نَصَّب نفسه حَكَمًا بين الأقوال والمذاهب، وقد قال الله تعالى لرسوله (ﷺ): ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُم﴾ [الشورى: 15]، فورثة الرسول (ﷺ) منصبهم العدل بين الطوائف، وألا يميل أحدهم مع قريبه وذوي مذهبه وطائفته ومتبوعه؛ بل يكون الحق مطلوبه، يسير بسيره، وينْزِل بنزوله، يَدِين العدل والإنصاف، ويُحكِم الحجة، وما كان عليه رسول الله (ﷺ) وأصحابه، فهو العلم الذي قد شمّر إليه، ومطلوبه الذي يحوم بطلبه عليه، ولا يثني عنانه عنه عذل عاذل، ولا تأخذه فيه لومة لائم، ولا يعيده عنه قول قائل"[3].

المطلب الثالث: صعوبة الرجوع إلى الحق لقوله خلافه.

إن الإنسان مهما علا شأنه لا بد أن يقع في الخطأ؛ لأنها طبيعة البشر، والإنسان العاقل هو الذي إذا وقع في خطأ لا يستمر فيه، بل يسارع إلى تصحيحه وتعديله. وهذا الفعل من شيم الكبار، فالتراجع عن الأخطاء والاعتراف بالحق فضيلة، وهو دليل على رجاحة العقل، وصواب الرأي، وحول هذا جاء قول

(1) المرجع السابق.

(2) المرجع السابق، (ص73).

(3) إعلام الموقعين عن رب العالمين، (1/ 54).

رسول الله (ﷺ): «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[1]، وفي الحديث دعوة صادقة للتراجع عن الأخطاء وأن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

والتراجعات العلمية والفقهية ظاهرة علمية لها أسبابها وضرورتها أساء البعض فهمها، وهي ظاهرة قديمة تعود إلى عصر الصحابة رضوان الله عليهم؛ من ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أنه قضى في امرأة توفيت، وتركت زوجها، وأمها، وإخوتها لأبيها، وأمها، وإخوتها لأمها، فأشرك عمر بين الإخوة للأم والأب والإخوة للأم في الثلث، فقال له رجل: إنك لم تُشَرِّك بينهم عام كذا وكذا، قال عمر: "تلك على ما قضينا يومئذٍ، وهذه على ما قضينا اليوم يومئذٍ، وهذه على ما قضينا اليوم"[2]، فأخذ أمير المؤمنين في كلا الاجتهادين بما ظهر له أنه الحق، ولم يمنعه القضاء الأول من الرجوع إلى الثاني، ولم ينقض الأول بالثاني.

وكذلك ما ثبت عن أصحاب المذاهب الأربعة أنهم يتراجعون، والإمام الشافعي في هذا لا يحتاج إلى ذكر مثال له، فنظرة عابرة إلى كتب الشافعية نجد فيها كثيرا من المسائل التي يقولون فيها: قوله في القديم كذا، وقوله في الجديد كذا[3].

أما عدم الرجوع إلى الحق إذا ظهر وبان بعد القول بخلافه فهو التعصب بذاته، إذ المتعصب قد يرفض الحق الذي تجلى له، ويتمسك بالباطل الذي كان عليه لصعوبة رجوعه عنه، وهذا ما لا يليق بمن يحمل العلم، وفي هذا قال الشوكاني في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 143]، "والمتعصب وإن كان بصره صحيحًا فبصيرته عمياء، وأذنه عن سماع الحق صماء، يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق غفلة منه وجهلا بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح، وتلقي ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم، وما أقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب في الأصول والفروع، فإنه صار بها باب الحق مرتجا، وطريق الإنصاف مستوعرة، والأمر لله سبحانه، والهداية منه"[4].

لذا كان من الأسباب المؤدية إلى التعصب؛ صعوبة الرجوع إلى الحق إذا قال خلافه وفق تشخيص الشوكاني له بقوله: "صعوبة الرجوع إلى الحق الذي قال بخلافه" ثم شرح ذلك بقوله: "وَمن آفَات التعصب الماحقة لبركة الْعلم أَن يكون طَالب الْعلم قد قَالَ بقول فِي مَسْأَلَة كَمَا يصدر مِمَّن يُفْتِي أَو يصنف أَو يناظر غَيره ويشتهر ذَلِك القَوْل عَنهُ، فَإِنَّهُ قد يصعب عَلَيْهِ الرُّجُوع عَنهُ إِلَى مَا يُخَالِفهُ وَإِن علم أَنه الْحق

(1) المستدرك، للحاكم، كتاب التوبة والإنابة، (7617)، (4/ 272). وحسنه الألباني، مشكاة المصابيح، (2341)، (2/ 724).

(2) رواه البيهقي في السنن الكبرى، (12469)، (6/ 418).

(3) ينظر: روضة الطالبين وعمدة المفتين، النووي، (1/ 44).

(4) فتح القدير، (2/ 277).

وَتبين لَهُ فَسَاد مَا قَالَه، وَلَا سَبَب لهَذَا الاستصعاب إِلَّا تَأْثِير الدُّنْيَا على الدّين، فَإِنَّهُ قد يسول لَهُ الشَّيْطَان أَو النَّفس الأمارة أَن ذَلِك ينقصهُ ويحط من رتبته ويخدش فِي تَحْقِيقه ويغض من رئاسته"[1].

وكان أهل العلم يرون الرجوع عن الباطل إلى الحق دليل على ديانة الرجل، فقد بوَّب الخطيب البغدادي في الكفاية بابًا عنوّن له بقوله: "باب فيمن رجع عن حديث غلط فيه وكان الغالب على روايته الصحة أن ذلك لا يضره[2].

وبين الرجوع إلى الحق والتصميم على الباطل، يتجلى الفرق بين أهل العلم وأهل الجهل، ويتميز المنصف العاقل من المتعصب الجاهل، قال الشوكاني في حق هذا وذاك: "فَإِن الرُّجُوع إِلَى الْحق يُوجب لَهُ من الْجَلالَة والنبالة وَحسن الثَّنَاء مَا لَا يكون فِي تصميمه على الْبَاطِل، بل لَيْسَ فِي التصميم على الْبَاطِل إِلَّا مَحْض النَّقْص لَهُ والإزراء عَلَيْهِ والاستصغار لشأنه، فَإِن مَنْهَج الْحق وَاضح الْمنَار يفهمهُ أهل الْعلم ويعرفون براهينه وَلَا سِيمَا عِنْد المناظرة، فَإِذا زاغ عَنهُ زائغ تعصبا لقَوْل قد قَالَه أَو رَأْي رَآهُ فَإِنَّهُ لَا محَالة بِكَوْن عِنْد من يطلع على ذَلِك من أهل الْعلم أحد رجلَيْنِ، إِمَّا متعصب مجادل مكابر إِن كَانَ لَهُ من الْفَهم وَالْعلم مَا يدْرك بِهِ الْحق ويتميز بِهِ الصَّوَاب، أَو جَاهِل فَاسد الْفَهم بَاطِل التَّصَوُّر إِن لم يكن لَهُ من الْعلم مَا يتَوَصَّل بِهِ إِلَى معرفَة بطلَان مَا صمم عَلَيْهِ وجادل عَنهُ، وكلا هذَيْن المطعنين فِيهِ غَايَة الشين"[3].

وهذا الأمر يبرز بجلاء في المناظرة والمحاورة بين أهل العلم عند الاختلاف في مسألةٍ ما؛ إذ قد يدفع التعصب بعضهم إلى الانتصار لرأيه وإن ظهر بطلانه، ورفض الحق الذي جاء به خصمه وإن ثبت صوابه، وهنا جاء تشخيص الشوكاني بقوله: "وَكَثِيرًا مَا تَجِد الرجلَيْن المنصفين من أهل الْعلم قد تباريا فِي مَسْأَلَة وتعارضا فِي بحث فبحث كل وَاحِد مِنْهُمَا عَن أَدِلَّة مَا ذهب إِلَيْهِ فجاءا بالمتردية والنطيحة على علم مِنْهُ بِأَن الْحق فِي الْجَانِب الآخر وَأَن مَا جَاءَ بِهِ لَا يسمن وَلَا يُغني من جوع. وَهَذَا نوع من التعصب دَقِيق جدا يَقع فِيهِ كثير من أهل الْإِنْصَاف وَلَا سِيمَا إِذا كَانَ بِمحضر من النَّاس وَأَنه لَا يرجع الْمُبْطل إِلَى الْحق إِلَّا فِي أندر الْأَحْوَال"[4].

وكثيرًا ما يحصل أن بعض أهل العلم وطلابه قد يقعون في الخطأ ومخالفة الصواب ويتبين لهم ذلك، لكنهم يصرون على ما هم عليه، وقد خفي عنهم أن الرجوع إلى الحق هو الخير والعدل والحكمة، وهو دأب السلف الصالح من الصحابة والأئمة الكبار، وحال العلماء الأتقياء وديدنهم، فالخطأ أمرٌ واردٌ والرجوع عنه أمرٌ لازم، بل مرفوع عنه الإثم والحرج، كما جاء في قوله (ﷺ): «إذا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ

---

(1) أدب الطلب، (ص114).

(2) ينظر: الكفاية في علم الرواية، الخطيب البغدادي، (ص145).

(3) أدب الطلب، (ص114).

(4) المرجع السابق.

ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وإذا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»[1]، فهذه دلائل على أن المجتهد برأيه غير معصوم من الخطأ تعمدًا كان أم سهوًا وغفلة، وأن عليه أن يرجع للحق إذا تبين له خطؤه، وله في سلف الأمة خير قدوة. قال ابن تيمية: " كان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وقافًا عند كتاب الله وكان أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) يبين له أشياء تخالف ما يقع له، كما بين له يوم الحديبية ويوم موت النبي(ﷺ) ويوم قتال مانعي الزكاة وغير ذلك، وكان عمر يشاور الصحابة، فتارة يرجع إليهم وتارة يرجعون إليه، وربما يرى رأيًا فيذكر له حديث عن النبي (ﷺ) فيعمل به ويدع رأيه، وكان يأخذ بعض السنة عمن هو دونه في قضايا متعددة، وكان يقول القول فيقال له أصبت، فيقول والله ما يدري عمر أصاب الحق أم أخطأه"[2].

وهذا ابن تيمية على جلال قدره وعظيم منزلته بين أهل العلم وطلابه، يرجع إلى الحق ويصرح بأنه كان يفتي بخلاف الحق، حيث قال: "فإن قيل فقد روي في الحديث إن كان جامدًا فألقوها وما حولها وكلوا سمنكم وإن كان مائعًا فلا تقربوه رواه أبو داود وغيره. قيل: هذه الزيادة هي التي اعتمد عليها من فرق بين المائع والجامد واعتقدوا أنها ثابتة من كلام النبي (ﷺ)، وكانوا في ذلك مجتهدين قائلين بمبلغ علمهم واجتهادهم، وقد ضعّف محمد بن يحيى الذهلي حديث الزهري وصحح هذه الزيادة، لكن قد تبين لغيرهم أن هذه الزيادة وقعت خطأ في الحديث ليست من كلام النبي (ﷺ)، وهذا هو الذي تبين لنا ولغيرنا، ونحن جازمون بأن هذه الزيادة ليست من كلام النبي (ﷺ)، فلذلك رجعنا عن الإفتاء بها بعد أن كنا نفتي بها أولًا، فإن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل"[3].

ويوجه الشوكاني النصيحة المباشرة للمتعصب بأسلوبٍ إيمانيٍ وعقلانيٍ وعاطفي، مبينًا خطورة ما هو عليه، وما ينبغي عليه فعله، فيقول: "وَلَو نظر ذَلِك المتعصب بِعَين الْإِنْصَاف وَرجع إِلَى عقله وَمَا تَقْتَضِيه فطرته الْأَصْلِيَّة، لكف عَن فعله وأقصر عَن غيه وجهله، وَلكنه قد حيل بَينه وَبَين ذَاك وَفرغ الشَّيْطَان مِنْهُ إِلَّا من عصم الله وَقَلِيل مَا هم. وَهَكَذَا صَاحب الْمعرفَة وحامل الْحجَّة وثاقب الْفَهم لَو وَطن نَفسه على الْإِرْشَاد وَتكلم بِكَلِمَة الْحق وَنصر الله سُبْحَانَهُ وَنصر دينه وَقَامَ فِي تَبْيِين مَا أمره الله بتبيينه لحمد مسراه وشكر عاقبته وَأَرَاهُ الله سُبْحَانَهُ من بَدَائِع صنعه وعجائب وقايته وَصدق مَا وعد بِهِ من قَوْله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:40]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ

(1) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، (7352)، (9/ 108).

(2) مجموع الفتاوى، (2/ 226).

(3) المرجع السابق، (21/ 516).

وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7] مَا يزِيدهُ ثباتا ويشد من عضده ويقوى قلبه فِي نصْرَة الْحق ومعاضدة أَهله"[1].

والأصل في من يحمل العلم وقد بدر منه الرأي الخاطئ أو البدعة المعلومة؛ المبادرة إلى تصحيح الخطأ، ورد البدعة، ونشر العلم الصحيح ابتغاء مرضاة الله، فمن كان دأبه الرجوع إلى الحق إذا بان له، فهو من ممن يحمل سمات أهل العلم والفضل ما لا يحمل منها المتعصب المُصر على الخطأ دون الرجوع عنه، وقد وصف الشوكاني أحوال هؤلاء بقوله: "وَلَقَد تتبعت أَحْوَال كثير من القائمين بِالْحَقِّ المبلغين بِهِ كَمَا أَمر الله المرشدين إِلَى الْحق، فوجدتهم ينالون من حسن الأحدوثة وَبعد الصيت وَقُوَّة الشُّهْرَة وانتشار الْعلم ونفاق المؤلفات وطيرانها وقبولها فِي النَّاس مَا لَا يبلغهُ غَيرهم وَلَا يَنَالهُ من سواهُم"[2].

المبحث الثالث: أسباب علمية ومنهجية

المطلب الأول: الاستناد إلى قواعد ظنية

ومما يوقع في الخطأ والتعصب الاستناد إلى قواعد ظنية، فقد تضمن التراث الإسلامي في نظر الشوكاني قواعد لا مستند لها من اللغة أو الشرع، ولكن شيوعها في الوسط العلمي جعلها ترتقي إلى درجة القطعية، وتصبح قانونا تعرض عليه نصوص الكتاب والسنة. وفي بيان ذلك قال: "وَمن جملَة أَسبَاب التعصب الَّتِي لَا يشْعر بهَا كثير من المشتغلين بالعلوم؛ مَا يذكرهُ كثير من المصنفين من أَنه يرد مَا خَالف الْقَوَاعِد المقررة، فَإِن من لَا عناية لَهُ بالبحث يسمع هَذِه الْمقَالة وَيرى مَا صنعه كثير من المصنفين من رد الْأَدِلَّة من الْكتاب وَالسّنة إِذا خَالف تِلْكَ الْقَاعِدَة، فيظن أَنَّهَا فِي اللَّوْح الْمَحْفُوظ، فَإِذا كشفها وجدهَا فِي الغالب كلمة تكلم بهَا بعض من يَعْتَقِدهُ النَّاس من أهل الْعلم الَّذين قد صَارُوا تَحت أطباق الثرى، لَا مُسْتَند لَهَا إِلَّا مَحْض الرَّأْي وبحت مَا يدعى من دلَالَة الْعقل"[3].

وعاب الشوكاني الغلو بالعقل مقابل النصوص الصحيحة وتقديمه عليها، وذلك بالاعتماد على علم الكلام والمبالغة فيه، لدرجة أن بعضهم جعله ندًا لنصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة، حيث قال: "وَكَثِيرًا مَا تَجِد فِي علم الْكَلَام الَّذِي يسمونه أُصُول الدّين قَاعِدَة قد تقررت بَينهم واشتهرت وتلقنها الآخر من الأول وخطوها جِسْرًا يدْفَعُونَ بهَا الْآيَات القرآنية وَالْأَحَادِيث النَّبَوِيَّة فَإِذا كشفت عَنْهَا وَجدتهَا فِي الأَصْل كلمة قَالَهَا بعض حكماء الْكَلَام زاعما أَنه يَقْتَضِي ذَلِك الْعقل ويستحسنه، وَلَيْسَ إِلَّا مُجَرّد الدَّعْوَى على الْعقل وَهُوَ عَنهُ برِئ فَإِنَّهُ لم يقْض بذلك الْعقل الَّذِي خلقه الله فِي عباده بل قضى بِهِ عقل قد تدنس بالبدع وتكدر بالتعصب وابتلى بِالْجَهْلِ بِمَا جَاءَ بِهِ الشَّرْع وَجَاء بعده من هُوَ أَشد بلَاء

(1) أدب الطلب، (ص74).
(2) المرجع السابق، (ص75).
(3) أدب الطلب، (ص134).

مِنْهُ واسخف عقلا وَأَقل علما وَأبْعد عَن الشَّرْع فَجعل ذَلِك قَاعِدَة عقلية ضَرُورِيَّة فَدفع بهَا جَمِيع مَا جَاءَ عَن الشَّارِع"[1].

والأمر كذلك في الاستناد إلى بعض قواعد أصول الفقه والبناء المطلق عليها دون الرجوع إلى أدلة الكتاب والسنة، ومن هنا عدَّ الشوكاني من مقومات البحث الفقهي الموضوعي؛ الكشف عن مثل هذه القواعد في علم الفقه وأصوله، وبيان ضعفها، وعدم صحة التمسك بها في إنشاء الأحكام، حيث قال: "وَهَكَذَا تَجِد فِي علم أصُول الْفِقْه قَاعِدَة قد أَخذهَا الآخر عَن الأول وتلقنها الْخلف عَن السّلف وبنوا عَلَيْهَا القناطر، وجعلوها إِمَامًا لأدلة الْكتاب وَالسّنة يجيزون مَا أجازته ويردون مَا ردته، وَلَيْسَت من قَوَاعِد اللُّغَة الْكُلية وَلَا من القوانين الشَّرْعِيَّة، بل لَا يسْتَند لَهَا إِلَّا الخيال المختل وَالظَّن الْفَاسِد والرأي البحت، وَمَعَ هَذَا فهم يَزْعمُونَ أَن هَذَا الْعلم لَا تقبل فِيهِ إِلَّا الْأَدِلَّة القطعية دَعْوَى ظَاهِرَة الْبطلَان وَاضِحَة الْفساد، فَإِن غالبها لَا يُوجد عَلَيْهِ دَلِيل من الْآحَاد صَحِيح وَلَا حسن بل لَا يُوجد أحادي ضَعِيف، وغالب مَا يُوجد الموضوعات الَّتِي لَا يمترى من لَهُ حَظّ من الْعلم فِي كذبهَا"[2]. ولكل زمان قواعد يُستند إليها مبالغةً بها وتقديمًا لها على صحيح النصوص، وهذا ما سارت عليه بعض الجماعات المنحرفة في الواقع المعاصر، وبنت عليها بعض توجهاتها المخالفة وممارساتها المسيئة للإسلام والمسلمين.

وبعد هذا الوصف قرر الشوكاني وجوب التحقيق في مثل هذه القواعد وعدم اتخاذها مُسلمات تنبني عليها مقدمات البحث ونتائجه، فقال: "فعلى من أراد الوصول إلى الحق والتمسك بشعار الإنصاف أن يكشف عن هذه الأمور فإنه إذا فعل ذلك هان عليه الخطب ولم يحل بينه وبين الحق ما ليس من الحق"[3].

والشوكاني هنا لا يقصد رفض القواعد بإطلاقها فهو فقيه وله نصيبٌ من الكتابة فيها وفي الفقه وأصوله والتشنيع على من يعطل العقل إجمالًا، إنما اقتصر حديثه على القواعد الظنية أولًا، ثم الاعتماد الكلي عليها مع استبعاد أدلة القرآن الكريم والسنة النبوية؛ إذ جعل هذا الفعل من الأسباب المنهجية الموقعة في التعصب.

المطلب الثاني: التقليد والتمذهب

لقد حذّر الصحابة والأئمة الكبار من التقليد والتمذهب والتعصب، وحذروا أشد التحذير من التعصب تخصيصًا، هذا التعصب الذي أدى بكثير من المتعصبين إلى ردّ النصوص الصريحة الواضحة من القرآن الكريم والسنة النبوية؛ وما كتاب (إعلام الموقعين) للإمام ابن القيم إلا علاج لهذا البلاء الخطير، بلاء التعصب المذهبي والتقليد الأعمى، وقد حكى ابن القيم عن أبي حنيفة وأبي يوسف أنهما قالا: "لا

(1) المرجع السابق.

(2) المرج السابق.

(3) المرجع نفسه، (ص135).

يحل لأحد أن يقول بقولنا حتى يعلم من أين قلناه"[1]. قال الشوكاني: "وهذا هو تصريح بمنع التقليد؛ لأن من علم بالدليل فهو مجتهد مطالب بالحجة لا مقلد فإنه الذي يقبل القول ولا يطالب بحجة"[2]. وكان الشافعي يقول: "إذا صح الحديث فاتركوا قولي وخذوا بالحديث"(3). وحكى ابن عبد البر أيضًا عن معن بن عيسى بإسناد متصل به قال: "سمعت مالكا يقول: إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه"[4]، وهو يشير في ذلك إلى حديث النبي (ﷺ): «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله عز وجل وسنة رسوله (ﷺ)»[5]. قال الشوكاني معقبا على كلام ابن عبد البر: "ولا يخفى عليك أن هذا تصريح منه بالمنع من تقليده لأن العمل بما وافق الكتاب والسنة من كلامه هو عمل بالكتاب والسنة وليس بمنسوب إليه وقد أمر أتباعه بترك ما كان من رأيه غير موافق للكتاب والسنة"[6].

وقال الزرقاني: "واعلم أن هناك أفرادًا؛ بل أقوامًا تعصَّبُوا لآرائهم ومذاهبهم، وزعموا أن من خالف هذه الآراء والمذاهب، كان مُبْتدعًا مُتَّبِعًا لهواه، ولو كان متأولًا تأويلًا سائغًا يتَّسِع له الدليل والبرهان، كان رأيُهم ومذهبهم هو المقياس والميزان، أو كأنه الكتاب والسنة والإسلام، وهكذا استزلَّهم الشيطان، وأعماهم الغرور، وقد نجم عن هذه الغلطة الشنيعة أن تفرَّقَ كثيرٌ من المسلمين شيعًا وأحزابًا، وكانوا حربًا على بعضهم وأعداءً، وغاب عنهم أن الكتاب والسنة والإسلام أوسع من مذاهبهم وآرائهم، وأن مذاهبهم وآراءهم أضيق من الكتاب والسُّنَّة والإسلام، وأن في ميدان الحنيفيَّة السمحة مُتَّسَعًا لحرية الأفكار، واختلاف الأنظار"[7].

ويرى الشوكاني أن هذه المذاهب الفقهية بتعصب أتباعها، "قد صار كل واحد منها كالشريعة عند أهله يذودون عنه كتاب الله وسنة رسوله، ويجعلونه جسرا يدفعون به كل ما يخالفه كائنا ما كان"[8].

وأبرز ما يميز الشوكاني في دعوته العلمية؛ الدعوة إلى الاجتهاد وترك التقليد، فصداها يتردد في جميع مصنفاته حتى لا يكاد يخلو منها كتاب، وقد تناولها ضمن مؤلفاته الفقهية، كالسيل الجرار وإرشاد الفحول، ولا يكتفي بذلك، بل يفرد لها رسالة بعنوان "القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد"، ويتطرق

---

(1) إعلام الموقعين عن رب العالمين، (3/ 470).

(2) القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد، (ص 42).

(3) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، (6/ 138).

(4) جامع بيان العلم وفضله، (2/ 32).

(5) موطأ مالك، كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر، (3)، (2/ 899). حسنه الألباني، مشكاة المصابيح، (186)، (1/ 66)

(6) القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد، (ص 42).

(7) مناهل العرفان، (2/ 27).

(8) قطر الولي على حديث الولي، (ص327).

إليها في تفسيره فتح القدير، فكان لا يمر عن آية تنعي على المشركين تقليدهم آباءهم إلا ويطبقها على مقلدي أئمة المذاهب الفقهية، ويرميهم بأنهم تاركون لكتاب الله وسنة نبيهم، كما عرج عليها في كتابه أدب الطلب. وقد أسّس الشوكاني رفضه للتقليد على جملة من الأسباب بعضها ديني من قبيل مخالفة بعض الصحابة ما ذهب إليه أبو بكر وعمر في بعض المسائل، وكذا دعوة الأئمة الصريحة ألا يقلدهم أحد من دون معرفة دليلهم، وبعضها الآخر دنيوي ويتعلق بتداعيات التقليد السلبية على الوحدة الإسلامية[1].

ويؤكد الشوكاني أن مرّد التعصب إلى التقليد والتمذهب والدوران حول أقوال قد تكون شاذة وغير مقبولة دون التحقق من سلامة القول واستقصاء الدليل الذي بني عليه، ومن ثم يكون قبوله أو رده، حيث يقول: "وَقد جرت قَاعِدَة أهل الْبدع فِي سَابق الدَّهْر ولاحقه، بِأَنَّهُم يفرحون بصدور الْكَلِمَة الْوَاحِدَة عَن عَالم من الْعلمَاء ويبالغون فِي إشهارها وإذاعتها فِيمَا بَينهم ويجعلونها حجَّة لبدعتهم، ويضربون بهَا وَجه من أنكر عَلَيْهِم كَمَا تَجدهُ فِي كتب الروافض من الرِّوَايَات لكلمات وَقعت من عُلَمَاء الْإِسْلَام فِيمَا يتَعَلَّق بِمَا شجر بَين الصَّحَابَة وَفِي المناقب والمثالب؛ فَإِنَّهُم يطيرون عِنْد ذَلِك فَرحا ويجعلونه من أعظم الذَّخَائِر والغنائم"[2].

وفي سبيل معالجة التقليد المفضي إلى التعصب؛ يوجه الشوكاني العلماء أن يتحملوا مسؤولياتهم ويقوموا بواجبهم إزاء المتعلمين المقلدين، بتوجيههم إلى البحث والاطلاع وتمحيص الآراء وتحري الحق والصواب، والإقلاع عن التقليد الذي لا يبنى عليه علم، فيقول: "وَأحسن مَا يَسْتَعْمِلهُ الْعَالم مَعَ هَؤُلَاءِ؛ ترغيبهم فِي الْعلم وتعظيم أمره، والإكثار من مدح عُلُوم الِاجْتِهَاد وَأَن بهَا يعرف أهل الْعلم الْحق من الْبَاطِل ويميزون الصَّوَاب من الْخَطَأ، وَأَن مُجَرّد التَّقْلِيد لَيْسَ من الْعلم الَّذِي يَنْبَغِي عدّ صَاحبه من جملَة أهل الْعلم، لَان كل مقلد يقر على نَفسه بِأَنَّهُ لَا يعقل حجج الله وَلَا يفهم مَا شَرعه لِعِبَادِهِ فِي كِتَابه وعَلى لِسَان رَسُوله"[3].

وأما من غلب عليهم الجهل وكان التقليد ديدنهم في كل شيء ولا يمتلكون القدرة على البحث والاجتهاد؛ فهم أشد غلوًا في التقليد والتمذهب المتعصب، ولا ينفع معهم التوجيه على اجتهاد الرأي وتنقيح الأدلة؛ فهؤلاء قد صار لهم التقليد منهجًا لا ينفكوا عنه، وفي تشخيص حالهم هذا قال الشوكاني: "وَأما من كَانَ لَا يفهم شَيْئا فِيهِ من عُلُوم الِاجْتِهَاد وَإِن أجهد نَفسه وَأطَال عناها وَأعظم كدها كَمَا هُوَ الْغَالِب على أهل

(1) ينظر: منهجية الشوكاني في نبذ التعصب والتقليد في فتح القدير، فكري الحكيمي، (ص124).
(2) أدب الطلب، (ص 74).
(3) المرجع السابق، (ص 98).

هَذِه الطَّبَقَة، فَإِنَّهُم إِذا استفرغوا وسعهم فِي علم الرَّأْي وأنفقوا فِي الِاشْتِغَال بِهِ شطرًا من أعمارهم وسكنت أنفسهم إِلَى التَّقْلِيد سكونا تَاما وقبلته قبولًا كليًا لم تبْق بَقِيَّة لفهم شيء من الْعُلُوم"[1].

ويصل الأمر بهذا الفريق من المقلدين الجهلة في تعصبهم إلى الانغلاق التام على ما ترسخ لديهم من أقوال لمشايخهم حتى لو كان مشايخهم مقلدين لغيرهم، وتبين لهم خطأ بعض أقوالهم والإجماع على ضدها، إلا أنهم لا يتراجعون عنها ولا يأخذون بغيرها، فيصير الكلام معهم غير مجدٍ لعدم استساغتهم التخلي عن هذه الأقوال التي يتشبثون بها باستماته عجيبة مع وقوعهم في بعض التناقضات، وقد وصفهم الشوكاني قائلًا: "وَأعظم من هَذَا أَنَّك ترى الْوَاحِد مِنْهُم يعْتَرف بِأَنَّهُ مقلد ثمَّ يحفظ عَن شَيْخه مَسْأَلَة يعْتَرف أَنَّهَا من أفكاره وَأَنه لم يسْبق إِلَيْهَا مَعَ اعترافه بِأَن ذَلِك الشَّيْخ مقلد واعترافه بِأَن تَقْلِيد الْمُقَلّد لَا يَصح، ثمَّ يَأْخُذ هَذِه الْمَسْأَلَة عَن شَيْخه وَيعْمل بهَا قَابلًا لَهَا قبولا تَامًا سَاكِنًا إِلَيْهَا منثلج الخاطر بهَا مُؤثر لَهَا على أَدِلَّة الْكتاب وَالسّنة وأنظار المبرزين من الْعلمَاء وَلَو أَجمعُوا جَمِيعًا"[2].

وكأن الشوكاني لا يصف جهلة عصره من المقلدين الجهلة المتعصبين فحسب؛ إنما أيضًا يصفهم كما هو حالهم في واقعنا المعاصر، إذ لا فرق بين السابقين واللاحقين، حيث ترى الباحثة أن هذه الأوصاف الشديدة التي أطلقها الشوكاني بحق المقلدين الذين يدفعهم تقليدهم إلى التعصب المقيت؛ تنطبق اليوم تمامًا على متعصبي الجماعات الإسلامية المخالفة والمنحرفة في مناهجها، بل لعل تقليدهم لمشايخ وقادة جماعاتهم أشد، وتعصبهم أكثر خطرًا، حيث يدفع بعضهم إلى ممارسة العنف، والإساءة لسمعة المسلمين والإسلام.

المطلب الثالث: تقليد المتعصبين من علماء الجرح والتعديل.

ظهر التعصب من بعض الجهلة في علم الجرح والتعديل، ومن ثم انتقل هذا التعصب في الجرح دون التعديل إلى خارج إطار هذا العلم وخصوصيته، وبدأ تقليد المتعصبين في الجرح والتعديل ليتحول هذا التعصب إلى ظاهرة سيئة لا حدود لها ولا ضوابط، مع أن الأصل المفهوم من قواعد الدين؛ صيانة أعراض المسلمين، وحرمة الخوض فيها إلا لضرورةٍ مُلْجِئة، ومصلحةٍ ظاهرة، لأن الجرح بمثابة الميتة للمضطَّر لا يأكل منها إلا ما يُبقيه حيًا دون التفكُّه والتلذُّذ، ولذلك قالوا: التفكُّه بأعراض المسلمين حرام، والأصل فيها العصمة. ولذلك اشترطوا: أن يكون المجروح من أهل الرواية، وإلا فلا فائدة في جرحه، كما اشترطوا: الاقتصار على الأمور التي تقدح في الراوية فقط، فلا يَسُبُّ أباه ولا أمه ولا نحو ذلك، كما يجب أن يكتفي في الجرح إذا أمكن بالإشارة المُفْهِمَة أو بأدنى تصريح، ولا تجوز له الزيادة على ذلك، كما لا يجوز الجرح بشيئين إذا حصل بواحد، فإن القدح إنما جاز للضرورة فليُقدَّر بقدرها[3].

---

(1) أدب الطلب، (ص98).

(2) أدب الطلب، (ص99).

(3) ينظر: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، السخاوي، (ص 172).

وقد حرص علماء الجرح والتعديل على وضع القواعد الضابطة لعملية النقد والجرح، بحيث لا يُقبل قولٌ منشؤه الهوى، أو التعصُّب، أو الحسد، أو غير ذلك، وهذه هي القاعدة المتعلِّقة بهذا الموضوع: "أن من ثبتت إمامته وعدالته، وكثر مادحوه وندر جارحه، وكانت هناك قرينة دالّة على سبب جرحه من تعصب مذهبي أو غيره لم يلتفت إلى جرحه"[1]. وحرصوا غالبًا على التزام هذه القواعد، ومراعاة هذه الشروط، بل حرصوا فضلًا عن ذلك على: التزام الأدب في اختيار ألفاظ الجرح. وقد جرت عادتهم بهذا، إلا أن كلام الأقران الناشئ عن الغضب أو الهوى أو العصبية، قد يجر إلى الخشونة في الألفاظ، والخروج عن حد الاعتدال في استخدام الألفاظ، لأنه يخالف قواعد الجرح التي وضعها العلماء.

ولذلك حذَّر السخاوي من نقل ما وقع بين الأئمة سيَّما المختلفين في المناظرات والمباحثات، وذكر بعض الأئمة الذين أوردوا ذلك في كتبهم ثم قال: فينبغي تجنُّب اقتفائهم في ذلك، ولذلك عزَّر بعض القضاة الأعلام من شيوخنا من نُسب إليه التحدُّث ببعضه، بل منعنا شيخنا الحافظ ابن حجر حين سمعنا عليه كتاب: "ذم الكلام" للهروي من الرواية عنه – أي من رواية ذلك الكتاب عن ابن حجر مع أنهم سمعوه منه – لما فيه من ذلك[2].

ويرى الشوكاني أن من الأسباب المانعة من التزام الإنصاف؛ التقليد للمتعصبين، حيث يقول: "وَمن جملَة الْأَسْبَاب الْمَانِعَة من الْإِنْصَاف؛ التَّقْلِيد فِي علم الْجرْح وَالتَّعْدِيل لمن فِيهِ عصبية من المصنفين فِيهِ كَمَا يجده اللبيب كثيرا"[3]. والسبب في ذلك كما قال: "فَإِنَّهُ إِذا تصدى لذَلِك بعض المصابين بالتقليد، كَانَ الْعدْل عِنْده من يُوَافقهُ فِي مذْهبه الَّذِي يَعْتَقِدهُ والمجروح من خَالفه كَائِنا من كَانَ"[4].

ودعا الشوكاني من خفي عنه هذا الأمر أن ينظر في مصنفات الحفاظ بعد انتشار المذاهب، وتقيد الناس بها، وكذا في كتب المؤرخين، فيلاحظ بوضوح أن "الْمُوَافقَة فِي الْمَذْهَب حاملة على ترك التَّعَرُّض لموجبات الْجرْح وكتم الْأَسْبَاب الْمُقْتَضِيَة لذَلِك، فَإِن وَقع التَّعَرُّض لشيءٍ مِنْهَا نَادرا أَكثر المُصَنّف من التأويلات والمراوغات والتعسفات الْمُوجبَة لدفع كَون ذَلِك الْخَارِج خَارِجا. وَإِن كَانَ الْكَلَام على أَحْوَال المخالفات كَانَ الْأَمر بِالْعَكْسِ من ذَلِك، فالفضائل مغموطة، والرذائل منشورة من غير تَأْوِيل وَلَا إِحْسَان ظن"[5].

وقد سار علماء الأمة على هذا الدرب، وسلكوا هذا الطريق، فأحسنوا الظن بالعلماء والأئمة، وحذَّروا طلبة العلم من الانشغال بهذه الأقوال أو روايتها، وهذا ما أرشد إليه الشوكاني ونصح به طالب الحق

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، (2/ 9).

(2) ينظر: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، (ص 168).

(3) أدب الطلب، (ص98).

(4) المرجع السابق.

(5) نفسه، (ص139).

بقوله: "دع عَنْك مَا يَقع مَعَ الِاخْتِلَاف فِي الْمذَاهب والمعتقدات فَإِنَّهُ يبلغ الْأَمر إِلَى عَدَاوَة فَوق عَدَاوَة أهل الْملَل الْمُخْتَلفَة، فطالب الإنصاف لَا يلْتَفت إِلَى شَيْءٍ مِمَّا يَقع من الْجرْح وَالتَّعْدِيل بالمذاهب والنحل، فيقبلون جَمِيعًا إِلَّا أَن يكون مَا جَاءَ بِهِ المتمذهب مقويًا لبدعته، أَو كَانَ على مَذْهَب لَا يرى بِالْكَذِبِ فِيهِ بَأْسا كَمَا هُوَ عِنْد غلاة الرافضة، وَأما مَا عدى الْجرْح وَالتَّعْدِيل بالمذاهب والمعتقدات فَإِن كَانَ الْمُتَكَلّم فِي ذَلِك بَرِيئًا عَن المتذهب والتعصب كَمَا يرْوى عَن السّلف قبل انتشار الْمذَاهب فاحرص عَلَيْهِ واعمل بِهِ، على اعْتِبَار صِحَة الرِّوَايَة وصدوره فِي الْوَاقِع، وَأما بِاعْتِبَار كَونه جارحا أَو غير جارح فَذَلِك مفوض إِلَى نظر الْمُجْتَهد"[1].

خاتمة

أولًا: أهم النتائج

1. الإنسان ابن بيئته وتأثره بها أمرٌ طبيعي، فإذا غلُب على أهل البلد ثقافة الجهل والتقليد التعصب وتميّز به، لاسيما التعصب المذهبي والتعصب للمشايخ والآراء، تشرّبه أبناء البلد وصار ديدنهم، ولا يكاد يسلم منه طلاب العلم.
2. لا يتوقف حب المال والشرف المؤدي إلى التعصب على ضعاف الورع ومتصنعي العلم وأهل البدعة فحسب، بل قد يقع فيه بعض من هم على معتقدٍ صحيح ومنهجٍ سليم، إذ يغلب عليهم الضعف البشري ويستحكم بهم الهوى؛ فيحصل منهم ما لا يليق بحقهم.
3. يصل أمر التعصب العلمي للقرابة والأجداد، إلى ترجيح مذاهبهم وأقوالهم وإن جانبت الصواب، إذ ينساق المتعصب لأجداده بفعل العاطفة البشرية من التعصب الأسري إلى التعصب العلمي، إن لم يحتكم لضوابط الشرع، وصحيح الأدلة، وصائب القول.
4. من أسباب التعصب المانعة من الرجوع إلى الحق؛ ألّا يُلتفت إلى الباحث المتمكن في بابه وتخصصه مهما أتقن وأفاد وأصاب، نظرًا لجهالته أو عدم شهرته أو صغر سنه؛ مما يؤدي إلى تغييب ما قدّمه من علم والحرمان من الاستفادة منه.
5. لا يقع في المراء والجدال الجاهل فقط، بل قد يقع فيه صاحب علمٍ وفهمٍ ودراية، إلا أن التعصب يمنعه من الإقرار بالحق والصواب، ويسوقه إلى الجدل والمراء انتصارًا للرأي والنفس لا للحق.
6. المنافسة بين الأقران من أسباب التعصب المانعة من الإنصاف، وتصل ببعضهم وإن كانوا من أهل العلم إلى درجة ردّ الصواب طالما جاء من الآخر المنافس.
7. المتعصب قد يرفض الحق الذي تجلى له، ويتمسك بالباطل الذي كان عليه لصعوبة رجوعه عنه، وبين الرجوع إلى الحق والتصميم على الباطل، يتجلى الفرق بين أهل العلم وأهل الجهل، ويتميز المنصف العاقل من المتعصب الجاهل.

---

(1) أدب الطلب، (ص139).

8. من الأسباب العلمية والمنهجية الموقعة في التعصب؛ الاستناد إلى بعض قواعد أصول الفقه الظنية والبناء المطلق عليها دون الرجوع إلى أدلة الكتاب والسنة، فهذا من الغلو مقابل الدليل الصحيح.
9. قد يرجع التعصب إلى الوقوع في التقليد والتمذهب المطلق والدوران حول أقوال قد تكون ضعيفة وغير مقبولة، دون التحقق من سلامة القول واستقصاء الدليل الذي بني عليه، ومن ثم يكون قبوله أو رده.

ثانيًا: أهم التوصيات

1. توصي الباحثة الباحثين والأكاديميين؛ بتتبع ورصد مناهج العلماء الكبار في تشخيص التعصب العلمي ومعالجاتها؛ لخطورة التعصب وأهمية مواجهته ومعالجته بين طلاب العلم.
2. توصي الباحثة الأقسام والكليات العلمية في تخصص الدراسات الإسلامية؛ بتضمين معالجات التعصب ضمن مفردات بعض المواد العلمية في التخصص.

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية

القرآن الكريم

ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات الجزري، (1399هـ- 1979م)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر الزاوي، ومحمود الطناحي، د ط، المكتبة العلمية، بيروت.

ابن الأزهري، محمد بن أحمد، (2001م)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن السبكي، تاج الدين، (1413هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، ط2، هجر للطباعة والنشر.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني، (1416هـ- 1995م)، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، (1423هـ)، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: أبو عبيدة مشهور آل سلمان، ط1، دار ابن الجوزي، السعودية.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي، (1408هـ- 1988م)، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، (1952م)، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مصر.

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، (1414هـ)، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت.

الأصبحي، مالك بن أنس، (1406هـ- 1985م)، موطأ الإمام مالك، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان،

الأصبهاني، أبو نعيم، (1394هـ-1974م)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مطبعة السعادة، مصر.

الأصفهانى، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان.

الألباني، محمد بن ناصر الدين، (1421هـ-2000م)، صحيح الترغيب والترهيب، ط1، مكتبة المعارف، الرياض.

الألباني، محمد بن ناصرالدين، (1985م)، مشكاة المصابيح، ط 3، المكتب الإسلامي، بيروت.
البخاري، محمد بن إسماعيل بن المغيرة، (1422هـ)، الجامع الصحيح، اعتنى به: محمد زهير الناصر، ط1، دار طوق النجاة، القاهرة.
بدوي، أحمد زكي، (1978م)، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت.
بو كروشة، حليمة، (1432هـ)، معالم تجديد المنهج الفقهي أنموذج الشوكاني.
البيهقي، أحمد بن الحسين، (1424هـ- 2003م)، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عطا، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنات.
الترمذي، محمد بن عيسى، (1395هـ- 1975م)، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، وآخرون، ط2، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.
التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر، شرح التلويح على التوضيح، مكتبة صبيح، مصر.
الجرجاني، علي بن محمد الشريف، (1403هـ -1983م)، التعريفات، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
الحاكم، محمد بن عبد الله النيسابوري، (1411هـ . 1990م)، المستدرك على الصحيحين: تحقيق: مصطفى عطا، ط1، دار المعرفة، بيروت.
الحكيمي، فكري عبد الله، (يناير2022م)، "منهجية الشوكاني في نبذ التعصب والتقليد في فتح القدير"، مجلة جامعة السعيد، المجلد 5، (العدد 1).
الخطيب، أحمد بن علي البغدادي، الكفاية في علم الرواية، تحقيق: أبو عبد الله السورقي، إبراهيم حمدي المدني، المكتبة العلمية، المدينة المنورة.
الذهبي، (د.ت)، الكبائر، دار الندوة الجديدة، بيروت.
الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، (1405هـ-1985م)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف: شعيب الأرناؤوط، ط3، مؤسسة الرسالة.
الزُّرْقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط3، مطبعة عيسى البابي الحلبي.
السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، المصدر: الشاملة الذهبية.
السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، (1424هـ- 2003م)، فتح المغيث بشرح الفية الحديث للعراقي، تحقيق: علي حسين، مكتبة السنة، ط1، مصر.
السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (1424هـ -2003م)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل، المكتبة العصرية، صيدا.
الشوكاني، فتح القدير، (1414هـ)، ط1، دار الكلم الطيب، بيروت.
الشوكاني، قطر الولي على حديث الولي = ولاية الله والطريق إليها، اليمني، تحقيق: إبراهيم هلال، دار الكتب الحديثة، مصر.
الشوكاني، محمد بن علي، (1419هـ- 1998م)، أدب الطلب ومنتهى الأدب، تحقيق: عبد الله يحيى السريحي، ط1، دار ابن حزم، بيروت.
الفراهيدي، الخليل بن أحمد البصري، (1985م)، العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، طبعة بغداد، دار ومكتبة الهلال.
القرطبي، أبو عمر يوسف النمري، (1398هـ)، جامع بيان العلم وفضله، دار الكتب العلمية، بيروت.

الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني أبو البقاء، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.

المكي، محمد بن عبد العظيم الرومي، (1988م)، القول السديد في بعض مسائل الاجتهاد والتقليد، تحقيق: عدنان سالم، ط1، دار الدعوة، الكويت.

مهدي، أيمن محمود، (1427هـ- 2006م)، كلام الأقران بعضهم في بعض أسبابه ونتائجه، ط1.

النسائي، أحمد بن شعيب، (1406هـ- 1986م)، المجتبى من السنن، ط2، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب.

النووي، محيي الدين بن شرف، (1412هـ- 1991م)، روضة الطالبين وعمدة المفتين، تحقيق: زهير الشاويش، ط3، المكتب الإسلامي، بيروت.

النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

المراجع العربية بحروف لاتينية

Al-Qurʾān al-Karīm

Ibn al-Athīr, Majd al-Dīn Abū al-Saʿādāt al-Jazarī. (1399 AH / 1979 CE). Al-Nihāya fī Gharīb al-Ḥadīth wa-l-Athar. Ed. Ṭāhir al-Zāwī & Maḥmūd al-Ṭanāḥī. Beirut: al-Maktaba al-ʿIlmiyya.

Ibn al-Azharī, Muḥammad b. Aḥmad. (2001 CE). Tahdhīb al-Lugha. Ed. Muḥammad ʿAwaḍ Murʿib. Beirut: Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabī.

Ibn al-Subkī, Tāj al-Dīn. (1413 AH). Ṭabaqāt al-Shāfiʿiyya al-Kubrā. Ed. Maḥmūd al-Ṭanāḥī & ʿAbd al-Fattāḥ al-Ḥilw. Cairo: Hajr li-l-Ṭibāʿa wa-l-Nashr, 2nd ed.

Ibn Taymiyya, Aḥmad b. ʿAbd al-Ḥalīm al-Ḥarrānī. (1416 AH / 1995 CE). Majmūʿ al-Fatāwā. Ed. ʿAbd al-Raḥmān b. Muḥammad b. Qāsim. al-Madīna al-Munawwara: Mujammaʿ al-Malik Fahd li-Ṭibāʿat al-Muṣḥaf al-Sharīf.

Ibn Qayyim al-Jawziyya, Muḥammad b. Abī Bakr b. Ayyūb. (1423 AH). Iʿlām al-Muwaqqiʿīn ʿan Rabb al-ʿĀlamīn. Ed. Abū ʿUbayda Mashhūr Āl Salmān. Saudi Arabia: Dār Ibn al-Jawzī, 1st ed.

Ibn Kathīr, Ismāʿīl b. ʿUmar al-Qurashī. (1408 AH / 1988 CE). Al-Bidāya wa-l-Nihāya. Ed. ʿAlī Shīrī. Beirut: Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabī, 1st ed.

Ibn Māja, Muḥammad b. Yazīd al-Qazwīnī. (1952 CE). Sunan Ibn Māja. Ed. Muḥammad Fuʾād ʿAbd al-Bāqī. Miṣr: Dār Iḥyāʾ al-Kutub al-ʿArabiyya.

Ibn Manẓūr, Jamāl al-Dīn Muḥammad b. Mukarram. (1414 AH). Lisān al-ʿArab. Beirut: Dār Ṣādir, 3rd ed.

Mālik b. Anas al-Aṣbaḥī. (1406 AH / 1985 CE). Al-Muwaṭṭaʾ. Ed. Muḥammad Fuʾād ʿAbd al-Bāqī. Beirut: Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabī.

Abū Nuʿaym al-Iṣfahānī. (1394 AH / 1974 CE). Ḥilyat al-Awliyāʾ wa-Ṭabaqāt al-Aṣfiyāʾ. Cairo: Maṭbaʿat al-Saʿāda.

Al-Aṣfahānī, al-Ḥusayn b. Muḥammad. Al-Mufradāt fī Gharīb al-Qurʾān. Ed. Muḥammad Sayyid Kaylānī. Beirut: Dār al-Maʿrifa.

Al-Albānī, Muḥammad b. Nāṣir al-Dīn. (1421 AH / 2000 CE). Ṣaḥīḥ al-Targhīb wa-l-Tarhīb. Riyadh: Maktabat al-Maʿārif, 1st ed.

Al-Albānī, Muḥammad b. Nāṣir al-Dīn. (1985 CE). Mishkāt al-Maṣābīḥ. Beirut: al-Maktab al-Islāmī, 3rd ed.

Al-Bukhārī, Muḥammad b. Ismāʿīl b. al-Mughīra. (1422 AH). Al-Jāmiʿ al-Ṣaḥīḥ. Supervised by Muḥammad Zuhayr al-Nāṣir. Cairo: Dār Ṭawq al-Najāh, 1st ed.

Badawī, Aḥmad Zākī. (1978 CE). Muʿjam Muṣṭalaḥāt al-ʿUlūm al-Ijtimāʿiyya. Beirut: Maktabat Lubnān.

Al-Farāhīdī, al-Khalīl b. Aḥmad al-Baṣrī. (1985 CE). Al-ʿAyn. Ed. Mahdī al-Makhzūmī & Ibrāhīm al-Sāmarāʾī. Baghdad: Dār wa-Maktabat al-Hilāl.

Bū Krūsha, Ḥalīma. (1432 AH). Maʿālim Tajdīd al-Manhaj al-Fiqhī: Namūdhaj al-Shawkānī.

Al-Bayhaqī, Aḥmad b. al-Ḥusayn. (1424 AH / 2003 CE). Al-Sunan al-Kubrā. Ed. Muḥammad ʿAṭā. Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya, 3rd ed.

Al-Tirmidhī, Muḥammad b. ʿĪsā. (1395 AH / 1975 CE). Sunan al-Tirmidhī. Ed. Aḥmad Shākir et al. Cairo: Maktabat Muṣṭafā al-Bābī al-Ḥalabī, 2nd ed.

Al-Taftāzānī, Saʿd al-Dīn Masʿūd b. ʿUmar. Sharḥ al-Talwīḥ ʿalā al-Tawḍīḥ. Miṣr: Maktabat Ṣubayḥ.

Al-Jurjānī, ʿAlī b. Muḥammad al-Sharīf. (1403 AH / 1983 CE). Al-Taʿrīfāt. Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya, 1st ed.

Al-Ḥākim, Muḥammad b. ʿAbd Allāh al-Nīsābūrī. (1411 AH / 1990 CE). Al-Mustadrak ʿalā al-Ṣaḥīḥayn. Ed. Muṣṭafā ʿAṭā. Beirut: Dār al-Maʿrifa, 1st ed.

Al-Ḥakīmī, Fikrī ʿAbd Allāh. (Jan. 2022 CE). "Manhajiyyat al-Shawkānī fī Nabdh al-Taʿaṣṣub wa-l-Taqālīd fī Fatḥ al-Qadīr." Majallat Jāmiʿat al-Saʿīd, vol. 5, no. 1.

Al-Khaṭīb, Aḥmad b. ʿAlī al-Baghdādī. Al-Kifāya fī ʿIlm al-Riwāya. Ed. Abū ʿAbd Allāh al-Sawraqī & Ibrāhīm Ḥamdī al-Madanī. al-Madīna al-Munawwara: al-Maktaba al-ʿIlmiyya.

Al-Dhahabī, Shams al-Dīn Muḥammad b. Aḥmad. (1405 AH / 1985 CE). Siyar Aʿlām al-Nubalāʾ. Ed. Shuʿayb al-Arnaʾūṭ et al. Beirut: Muʾassasat al-Risāla, 3rd ed.

Al-Dhahabī. Al-Kabāʾir. Beirut: Dār al-Nadwa al-Jadīda.

Al-Zurqānī, Muḥammad ʿAbd al-ʿAẓīm. Manāhil al-ʿIrfān fī ʿUlūm al-Qurʾān. Cairo: Maṭbaʿat ʿĪsā al-Bābī al-Ḥalabī, 3rd ed.

Al-Sakhāwī, Shams al-Dīn Muḥammad b. ʿAbd al-Raḥmān. (1424 AH / 2003 CE). Fatḥ al-Mughīth bi-Sharḥ Alfiyyat al-Ḥadīth li-l-ʿIrāqī. Ed. ʿAlī Ḥusayn. Miṣr: Maktabat al-Sunna, 1st ed.

Al-Sakhāwī. Al-Iʿlān bi-l-Tawbīkh li-man Dhamm al-Tārīkh. (Source: al-Shāmila al-Dhahabiyya).

Al-Suyūṭī, Jalāl al-Dīn ʿAbd al-Raḥmān b. Abī Bakr. (1424 AH / 2003 CE). Bughyat al-Wuʿāt fī Ṭabaqāt al-Lughawiyyīn wa-l-Nuḥāt. Ed. Muḥammad Abū al-Faḍl. Ṣaydā: al-Maktaba al-ʿAṣriyya.

Al-Shawkānī, Muḥammad b. ʿAlī. (1419 AH / 1998 CE). Adab al-Ṭalab wa-Muntahā al-Adab. Ed. ʿAbd Allāh Yaḥyā al-Sarīḥī. Beirut: Dār Ibn Ḥazm, 1st ed.

Al-Shawkānī. (1414 AH). Fatḥ al-Qadīr. Beirut: Dār al-Kalim al-Ṭayyib, 1st ed.

Al-Shawkānī. Qaṭr al-Walī ʿalā Ḥadīth al-Walī = Wilāyat Allāh wa-l-Ṭarīq ilayhā. Ed. Ibrāhīm Hilāl. Cairo: Dār al-Kutub al-Ḥadītha.

Al-Qurṭubī, Abū ʿUmar Yūsuf al-Namarī. (1398 AH). Jāmiʿ Bayān al-ʿIlm wa-Faḍlihi. Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya.

Al-Kafawī, Ayyūb b. Mūsā al-Ḥusaynī Abū al-Baqāʾ. Al-Kulliyyāt: Muʿjam fī al-Muṣṭalaḥāt wa-l-Furūq al-Lughawiyya. Ed. ʿAdnān Darwīsh & Muḥammad al-Miṣrī. Beirut: Muʾassasat al-Risāla.

Al-Makkī, Muḥammad b. ʿAbd al-ʿAẓīm al-Rūmī. (1988 CE). Al-Qawl al-Sadīd fī Baʿḍ Masāʾil al-Ijtihād wa-l-Taqālīd. Ed. ʿAdnān Sālim. Kuwait: Dār al-Daʿwa, 1st ed.

Mahdī, Ayman Maḥmūd. (1427 AH / 2006 CE). Kalām al-Aqrān Baʿḍuhum fī Baʿḍ: Asbābuh wa-Natāʾijuh. 1st ed.

Al-Nasāʾī, Aḥmad b. Shuʿayb. (1406 AH / 1986 CE). Al-Mujtabā min al-Sunan. Aleppo: Maktab al-Maṭbūʿāt al-Islāmiyya, 2nd ed.

Al-Nawawī, Muḥyī al-Dīn b. Sharaf. (1412 AH / 1991 CE). Rawḍat al-Ṭālibīn wa-ʿUmdat al-Muftīn. Ed. Zuhayr al-Shāwīsh. Beirut: al-Maktab al-Islāmī, 3rd ed.

Al-Nīsābūrī, Muslim b. al-Ḥajjāj. Ṣaḥīḥ Muslim. Ed. Muḥammad Fuʾād ʿAbd al-Bāqī. Beirut: Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabī.

مجلة جامعة الملك عبدالعزيز: الآداب والعلوم الإنسانية، م (33)، ع (5)، ص ص: 365 – 393، (٢٠٢٥م)
DOI: 10.64064/1658-4295.1067

Al-Imam al-Shawkānī's Diagnosis of the Causes Underlying Scholarly Fanaticism in His Work "Adab al-Ṭalab wa-Muntahā al-Arab"

Arwa bint Muhammad Al-uqla

Associate Professor, Department of Da`wah and Islamic Culture, College of Da`wah and Fundamentals of Religion, Umm Al Qura University, Makkah
a-roooora@hotmail.com

Abstract: This study investigates the phenomenon of scholarly fanaticism and analyzes Imam al-Shawkānī's approach to diagnosing its root causes as presented in Adab al-Ṭalab wa-Muntahā al-Arab. The research categorizes these causes into three major dimensions: environmental and social, psychological and ethical, and intellectual and methodological. Through inductive and deductive methods, the study identifies how these factors shape scholarly attitudes and practices. The findings demonstrate that individuals are inevitably influenced by their environment. When ignorance and blind imitation dominate, fanaticism-manifested in sectarian partisanship and unquestioned loyalty to teachers or inherited opinions—becomes widespread, with only a few students escaping its impact. Fanaticism is not confined to the unlearned; even knowledgeable scholars may fall into disputation, where bias prevents them from admitting truth, driving them instead to defend personal views and egos. Rivalry among peers is another key factor, often obstructing fairness and leading to rejection of correct opinions merely because they come from competitors. The study recommends further scholarly exploration of the positions of prominent scholars toward fanaticism, underscoring the urgency of confronting and addressing this issue within academic and educational contexts.

Keywords: Diagnosis – al-Shawkānī – causes – occurrence – fanaticism – scholarship.